كتاب الصدق

أبو سعيد الخراز

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أبو سعيد الخَرَّاز

كِتاب الصِّدق

Telegram:@mbooks90

دار الكرمة للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة©

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والسلام على عباده الذين اصطفى.

قال الشيخ الإمام العارف أبو سعيد أحمد بن عيسى البغدادي الخرَّاز، قدَّس الله روحه ونوَّر ضريحه:

قلت لبعض العلماء: أخبرني عن الصِّدق، كيف هو؟ وما معناه؟ وكيف العمل به؟ حتى أعرفه.

فقال: الصِّدق اسم للمعاني كلها، وهو داخل فيها. أتُحب أن أُجيب عن مسألتك جوابًا مختصرًا أُجمِلُه، أم أشرح لك العلم والعمل بالأُصول التي بها تقوم الفروع؟

قلت: أريد الأمرين جميعًا، ليكون ذلك علمًا لي وفقهًا ونصرة.

Telegram:@mbooks90

فقال: وفِّقت إن شاء الله.

اعلم أنه لا بد للمريد، المحقق في إيمانه، والمُطالب لسلوك سبيل النجاة، من معرفة ثلاثة أصول يعمل بها، فبذلك يقوى إيمانه، وتقوم حقائقه، وتثبت فروعه، فتصفو عند ذلك الأعمال، وتخلص إن شاء

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الله.

فأوَّلها الإخلاص

لقول الله عز وجل: «فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ»، وقال تعالى: «فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ»، وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم: «قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ»، وقال: «قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي»، وقال جل ذكره: «وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا»، ونحو هذا في القرآن كثير، وفي هذا مقنع.

ثم الصدق

لقول الله عز وجل: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ»، وقال تعالى: «فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ»، وقال تعالى: «رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِ»، وقال تعالى: «وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ»، وقال: «لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡ»، وقال تعالى: «وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ»، وهذا كثير في القرآن.

ثم الصبر

لقول الله عز وجل: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ»، وقال

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تعالى: «وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ»، وقال تعالى: «وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا»، وقال تعالى: «وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا»، وقال تعالى: «وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ»، وقال تعالى: «وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ»، وقال تعالى: «وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ»، فجعل لهم الكرامة بالبشرى، وهذا كثير مؤكد في القرآن.

* * *

وهذه ثلاثة أسماء لمعانٍ مختلفة، وهي داخلة في جميع الأعمال، ولا تتم الأعمال إلا بها، فإذا فارقت الأعمال فَسدتْ ولم تتم.

ولا يتم بعض هذه الأصول الثلاثة إلا ببعض، فمتى فُقِدَ أحدها تعطلت الأُخَر.

قال: فالإخلاص لا يتم إلا بالصدق فيه والصبر عليه. والصبر لا يتم إلا بالصدق فيه والإخلاص فيه. والصدق لا يتم إلا بالصبر عليه والإخلاص فيه.

فأول الأعمال هو الإخلاص.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فالفرض الواجب: أن تؤمن بالله، وتعلم وتُقر وتشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنه الأول والآخر والظاهر والباطن، الخالق البارئ المُصور الرازق، المُحيي المميت، الذي إليه تُرجع الأمور، وأن مُحمدًا عبده ورسوله، جاء بالحق من عند الحق، والنبيين حق، وبالحق أدوا الرسالة وبالغوا في النصيحة، وأن الجنة حق والبعث حق، والمرد إلى الله تعالى، يغفر لمَن يشاء ويُعذب مَن يشاء.

ويكون ذلك عقدَك ظاهرًا على لسانك بلا شك ولا ريب، ساكنًا قلبك، مطمئنًّا إلى ما صدقت به وأقررت.

وكذلك لا يعارضك في كل ما جاء من عند الله على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم شك في كل ما ذكره عن ربه عز وجل، غير مُخالف لما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأئمة الهُدَى الذين كانوا قدوة لمَن جاء بعدهم من أهل الهداية، ثم التابعون من بعدهم، ثم علماء كل عصر، مُتبعًا للجماعة، مخلصًا في ذلك لله وحده، لا تريد إلا الله تعالى، ليتم إسلامك وإيمانك وتوحيدك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

باب الصدق في الإخلاص

وهو الذي أمر الله تعالى به حين يقول: «فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا»، فمن شرح ذلك: أن يكون العبد يريد الله عز وجل بجميع أعماله وأفعاله وحركاته كلها، ظاهرها وباطنها، لا يريد بها إلا الله وحده، قائمًا بعقله وعلمه على نفسه وقلبه، راعيًا لهمّه، قاصدًا إلى الله تعالى بجميع أمره، لا يحب مدح أحد ولا ثناءه، ولا يفرح بعمله إذا اطلع عليه المخلوقون، فإن عارضه من ذلك شيء اتقاه بالسرعة والكراهية، ولم يسكن إليه، لكن إذا أثنى عليه أحد حمد الله على ستره عليه حين وفّقه لخيرٍ رآه العباد عليه.

نعم، ثم يخاف عند ذلك من عمله الردي، وسريرته القبيحة التي خفيت على الناس ولم تخفَ على الله، فأشفق من ذلك، وخاف أن تكونَ سريرته أقبح من علانيته.

فهكذا يُروى في الحديث: «السريرة إذا كانت أقبح من العلانية، فذلك الجور، فإذا استوت السريرة والعلانية، فذلك العدل، وإذا فضلت السريرة على العلانية، فذلك الفضل».

فالواجب على العبد أن يُخفي عمله جهدَه حتى لا يطلع عليه إلا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الله تعالى، فذلك أبلغ في رضا الله عز وجل، وأعظم في تضعيف الثواب، وأقرب إلى السلامة، وأوهن لكيد العدو، وأبعد من الآفات.

وروي عن سفيان الثوري رحمه الله، أنه قال: ما أعبأ بما يظهر من عملي.

ويُروى في الحديث: «إن عمل السر يفضل على عمل العلانية سبعين ضعفًا». ويروى: «إن العبد ليَعمل العمل في السر فيدَعه الشيطان عشرين سنة، ثم يدعوه إلى أن يُظهره ويذكره، فينُقل من ديوان السر إلى ديوان العلانية، فينقص من ثواب العمل وفضله، ثم لا يزال يذكِّره أعماله حتى يذكرها للناس، ويتحلى إطلاعهم عليها، ويسكن إلى ثنائهم فيصير رئاء».

فهذه الأمور ضد الإخلاص، وما ذكرنا فهو جملة الإخلاص الذي لا بد للمخلوقين من معرفته والعمل به، ولا يسعهم جهله، وتبقى الزيادة في الإخلاص مع العبد إذا أحكم هذه الأصول.

قلت: ثم ماذا؟

قال: مما يمكن أن يذكر أن يكون العبد لا يرجو إلا الله، ولا يخاف إلا الله، ولا يتزين إلا لله، ولا تأخذه في الله لومة لائم، ولا يبالي إذا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وافق الأمر الذي فيه محبة الله ورضاه من سخطه.

وما بقي من ذِكر غاية الإخلاص أكثر، وفي هذا بلاغ للمريدين السالكين للطريق.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

باب الصدق في الصبر

والصبر اسم لمعانٍ ظاهرة وباطنة، فأما الظاهرة فهي أربعة:

فأولها الصبر على أداء فرائض الله تعالى على كل حال، في الشدة والرخاء والعافية والبلاء، طوعًا وكرهًا.

ثم الصبر الثاني، وهو الصبر عن كل ما نهى الله تعالى عنه، ومَنْع النفس من كل ما مالت إليه بهواها مما ليس لله تعالى فيه رضا، طوعًا وكرهًا.

وهذان صبران في موطنَين، هما فرض على العباد أن يعملوا بهما.

ثم الصبر الثالث، وهو الصبر على النوافل وأعمال البر، مما يقرب العبد إلى الله تعالى، فيحمل نفسه على بلوغ الغاية منه للذي رجاه من ثواب الله عز وجل. وهكذا يُروى أن النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه عن ربه عز وجل قال: «ما تقرب إليَّ عبدي بمثل ما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه».

والصبر الرابع، وهو الصبر على قبول الحق ممن جاءك به من الناس

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ودعاك إليه بالنصيحة، فيقبل منه، لأن الحق رسول من الله جلَّ ذكره إلى العباد، ولا يجوز لهم ردّه، فمن ترك قبول الحق ورده، فإنما يردّ على الله تعالى أمره.

وهذا ظاهر الصبر الواجب على الخلق الذي لا يسعهم جهله، ولا بد لهم منه.

وبقي شرح حقائق الصبر وغايته الذي يكون مع الصابرين بعد إحكام هذا الصبر الذي ذكرناه.

قلت: فالصبر في نفسه ما هو؟ وما موجوده في القلب؟

قال: الصبر هو احتمال مكروه النفس.

وموجوده: إذا وقع بالنفس ما تكرهه، تجرَّعت ذلك وأنِفت الجزع، وتركت البث والشكوى، وكتمت ما نزل بها، لأنه يُروى في الحديث: «مَن بثَّ فقد شكا». ألم تسمع الله تعالى يقول: «وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ»؟ أفلا ترى أنه كظم ما كره، وشق على نفسه احتماله، فصار صابرًا؟ فإذا أبدى الجزع، وكافأ مَن أساء إليه، ولم يعفُ عمَّن أساء إليه، خرج من حد الصبر على هذا القياس.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قلت: فبماذا يقوى الصابر على الصبر؟ وبماذا يتم له؟

قال: يُروى في الحديث: «إن الصبر على المكاره من حُسن اليقين»، ويُروى: «إن الصبر نصفُ الإيمان، واليقين الإيمان كله». وذلك أن العبد لما آمن بالله تعالى، وصدّق قوله في الذي وعده وتواعده، قامت في قلبه الرغبة في ثواب الله تعالى الذي وعده، ولزمت قلبه الخشية من عقاب الله الذي تواعده، وصحّت عند ذلك رغبته، وقامت عزيمته في طلب النجاة مما يخافه، وهاجت آماله في الظفر بالذي يرجوه، فجدّ عند ذلك في الطلب والهرب، فسكن الخوف والرجاء قلبه، فركب عند ذلك مطية الصبر، وتجرّع مرارته عند نزوله، ومضى في إنفاذ العزائم وحَذِر من نقصها، فوقع عليه اسم الصبر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

باب والصدق اسم لمعانٍ كثيرة

فأول الصدق هو صدق العبد في الإنابة إلى الله تعالى بالتوبة النصوح، لقول الله عز وجل: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا»، وقال تعالى: «وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ»، وقال تعالى: «لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ».

فأول التوبة هو الندم على ما كان من التفريط في أمر الله تعالى ونهيه، والعزيمة على ترك العود في شيء مما يكره الله عز وجل، ودوام الاستغفار، وردُّ كل مظلمة للعباد من مالهم وأعراضهم، والاعتراف لله تعالى ولهم، ولزوم الخوف والحزن والإشفاق ألَّا تكون مصححًا، والخوف ألَّا تُقبل توبتك، ولا تأمن أن يكون قد رآك الله تعالى على بعض ما يكره فمقتَك.

وهكذا يُروى عن الحسن البصري رضي الله عنه أنه قال: ما يؤمِّنني أن يكون قد رآني على بعض ما يكره، فقال اعمل ما شئتَ فلا غفرتُ؟

ويُروى عنه أيضًا أنه قال: أخاف أن يطرحني في النار ولا يبالي!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وبلغني أن بعض العلماء لقي بعض الناس فقال له: تبتَ؟ قال: نعم. قال: قُبلتَ؟ قال: لا أدري. قال: اذهب فادرِ.

وقال: يفنى حزن كل ثكلى، وحزن التائب ما يفنى!

ومن صدق التوبة: ترك الأخدان والأصحاب الذين أعانوك على تضييع أمر الله تعالى، والهرب منهم، وأن تتخذهم أعداء، أو يرجعوا إلى الله، فهكذا قال الله عز وجل: «ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ».

ومن صدق التوبة: خروج المأثم من القلب، والحذر من خفايا التطلع إلى ذكر شيء مما أنبتَ إلى الله منه. قال الله عز وجل: «وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ».

واعلم أن المؤمن كلما صحح وكثر علمه بالله تعالى، دقَّت عليه التوبة أبدًا. ألا ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «إنه ليُغانُ على قلبي فأستغفر الله وأتوب إليه كل يوم مائة مرة». فمَن طهر قلبه من الآثام والأدناس وسكنه النور، لم يخفَ عليه ما يدخل قلبه من خفيِّ الآفة، وما يلزمه من القسوة من الهمة بالزَّلة قبل الفعل، فيتوب عند ذلك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

باب الصدق في معرفة النفس والقيام عليها

قال الله عز وجل: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ»، وقال تعالى في قصة يوسف عليه السلام حين يذكر عنه: «وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ»، وقال تعالى: «وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ». وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أعدى عدو لك: نفسك التي بين جنبيك، ثم أهلك، ثم ولدك، ثم الأقرب فالأقرب». ويُروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «نفس إن قبقبها ونغمتها ذمَّته غدًا عند الله»، قيل له: وما هي؟ قال: «أنفسكم التي بين جنبيكم».

فمن صفة الصادق في القصد إلى الله تعالى أن يدعو نفسه إلى طاعة الله تعالى وطلب مرضاته:

فإن أجابته حمد الله تعالى وأحسن إليها. فهكذا يُروى عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنهم رأوه يوطِّئ شيئًا يفترشه، فقيل له: ما هذا؟ قال: نفسي إن لم أُحسِن إليها لم تحملني.

وإن لم تُجِبه إلى ما يُرضي الله ورآها بطيئة، منعها محبوبها من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العيشِ، وخالفها عندما تهوى، وعاداها في الله ولله، وشكاها إلى الله حتى يُصلحها له.

ولا يقيم على ذمها مع الإحسان إليها وذِكْر عيوبها والذم لها وما لا يرضاه من فعلها، مع الإقامة معها على الذي تهواه من الفعل. وهكذا يُروى عن بعض العلماء أنه قال: قد علمت أن من صلاح نفسي علمي بفسادها. وكفى بالمرء إثمًا أن يعرف من نفسه عيبًا لا يصلحه، وليس منتقلًا من ذلك إلى توبة!

وقال بعض العلماء: إن كنتَ صادقًا في ذمك لنفسك، فإن ذمَّكَ غيرُك بما فيك فلا تغضب.

وإذا نازعتك نفسك إلى شيء من الشهوات، أو شُغلِ قلبك في طلب شيء مما حُرِم عليك وحلَّ لك، فاتَّهِمها تهمة مَن يريد صلاحها، وامنعها من ذلك منع مَن يريد استعبادها، واحملها بالامتناع عن الملاذ على اللحوق بمَن تقدمها، فإن الذي نازعتك إليه لا يخلو من أن يكون حرامًا تستحق به السخط، أو حلالًا تستوجب به طول الوقوف على المساءلة إذا مضى التاركون للحرام إجلالًا له وتعظيمًا له، ووقفوا عن الحلال للانكماش والمبادرة.

فاعمل في فطام نفسك عن الحالَيْن جميعًا، فإن مَن فطم نفسه عن الدنيا، كان رضاعه من الآخرة، ومَن اتخذ الآخرة أُمًّا أحب برَّها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والورود عليها.

إذا رضي أبناء الدنيا بالدنيا أُمًّا، وبروها وسعوا من أجلها، فارمِ المُؤثِرين للدنيا من قلبك بالهجران، مع النصحية لهم وتحذيرهم إياها.

واحذر التخلف عن السابقين، وانظر في خاصة نفسك، وحُثَّ على ذلك أصفياءك وبطائنك، فإن السابقين شمَّروا، وشدوا المآزر، وكشفوا عن الرؤوس والسوق، فاغتنموا الصحة، وبادروا في النشاط، ورعوا حق الله تعالى أن يهتكوا سترًا مما نهاهم عنه، وتحبَّبوا إليه برفض ما أباح لهم أخذه، وتركوا الحرام تعبدًا، والحلال تقربًا، وألِفوا السهر والظمأ، وأنِسوا إلى التبلغ والاجتزاء باليسير.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

باب الصدق في معرفة عدوك: إبليس

قال الله عز وجل: «إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ»، وقال جل وعز: «يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ»، وقال تعالى: «وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ».

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: للملَك لمَّة وللشيطان لمَّة، فلمَّة الملَك إيعاد بالخير، ولمَّة الشيطان إيعاد بالشر.

وقال في خبر آخر: إن الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا ذكر الله خنس، وإذا غفل وسوس.

فاقطع مادته بالعزيمة على مخالفة هواك، وامنع نفسك من الإفراط والتشوف، فهما خير أعوانه عليك، وبهما يقوى كيده، وإذا اتبعتهما فأحضر عقلك وعلمك الذي علَّمك الله تعالى، فقم بهما على نفسك، وراعِ قلبك وما يقع فيه، فما كان من أجناس الخير والعلم فاتبعه، وما كان من جنس الباطل والهوى فانفِه بالسرعة، ولا تمادِ على الخطرة فتصير شهوة، ثم تصير الشهوة هِمَّة، ثم تصير الهِمَّة فعلًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

واعلم أن عدوك إبليس لا يغفل عنك في سكوت ولا كلام، ولا صلاة ولا صيام، ولا بذل ولا منع، ولا سفر ولا حضر، ولا تفرد ولا خلطة، ولا في توقُّر ولا عجلة، ولا في نظر ولا في غض بصر، ولا في كسل ولا في نشاط، ولا في ضحك ولا في بكاء، ولا في إخفاء ولا في إعلان، ولا حزن ولا فرح، ولا صحة ولا سقم، ولا مسألة ولا جواب، ولا علم ولا جهل، ولا بُعد ولا قُرب، ولا حركة ولا سكون، ولا توبة ولا إصرار.

ولن يألو جهدًا في توهين عزمك وفتور نيتك وتأخير توبتك، ويسوِّف برَّك وقتًا إلى وقت، ويأمرك بتعجيل ما لا يضرك تأخيره، يريد بذلك قطعك عن الخير، ثم يُذكِّرك في وقت شغلِك بالبر والطاعة الحوائجَ ليقطعك عن خير أنت فيه.

وربما حبَّب إليك النقلة من بلد إلى بلد، يوهمك أن غير البلد الذي أنت فيه أفضل، ليشغل قلبك، ويعطل مقامك، بما يعقبك الندم إذا أنت فعلته.

فاحترس من عدوك أشد الاحتراس، وتحصَّن منه بالملجأ إلى الله عز وجل، فإنه أمنع الحصون، وأقوى الأركان.

فاجعل الله تعالى كهفك وملجأك، واحذر عدوك عند الغضب والحدة:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فإنك إن استقبلك في هيج الغضب ذِكرُ الله تعالى، وعلمت أنه شاهِدُك، أطفأت بمراقبته نيران العز وتوقُّد الحمية، وأجللت مَن قد علمت أنه يراك من أن تُحدث في غضبك ما تستحق به غضبه، فإن الشيطان يغنم منك هيج الغضب وحمية الشهوة.

وأما حذرك إياه عند الحدة، فإنه يُقال إن الشيطان يقول: إن الحديد من العباد لن نيأس منه، ولو كان يحيي بدعائه الموتى، لأنه تأتي عليه ساعة يحتد، فنصير منه إلى ما نريد. «وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

باب الصدق في الورع واستعمال التقية

فالصدق في الورع هو الخروج من كل شبهة، والترك لكل ما اشتبه عليك من الأمور.

فهكذا يُروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا يكون العبد من المتقين حتى يدع ما لا بأس به مخافة ما به بأس». وقال صلى الله عليه وسلم: «الحلال بيّن والحرام بيّن، وبين ذلك أمور مشتبهات، فمَن ترك الشبهات مخافة أن يقع في الحرام فقد استبرأ لعرضه».

وقال ابن سيرين رحمة الله عليه: ما في ديني شيء أيسر من الورع، وكل ما اشتبه عليَّ تركته.

وقال الفُضيل رحمه الله: يقول الناس الورع شديد، دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، خذ ما حلَّ وطاب من الأشياء، وابذل المجهود في طلب الشيء الصافي من الحلال. لأن الله عز وجل قال: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا».

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لسعد رضي الله عنه: «إن أردت أن يُجيب الله تعالى دعاءك فكل الحلال».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله، مَن المؤمن؟ قال: «مَن إذا أمسى نظر من أين قرصه».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

باب الصدق في الحلال الصافي إذا وجدته، وكيف العمل به؟

فالصدق في الحلال إذا وجدته، أن تأخذ منه ما لا بد منه على قدر معرفتك بنفسك وما يقيم ميلها، ولا تحمل عليها فوق طاقتها فتنقطع، ولا تصير معها إلى ما تهواه من السرف، ولكنْ خذ ما يقيمك بلا تقتير ولا سرف في الطعام واللباس والمسكن، واحذر الفضول مخافة الحساب وطول الوقوف.

فهكذا يُروى أن رجلًا قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: يا أبا الحسن صف لنا الدنيا، فقال: حلالها حساب، وحرامها عذاب أو عقاب.

فإذا كان العبد ضعيفًا، ثم ملك الشيء الطيب، حبسه على نفسه وعلى مَن يمون، فأنفق منه بالمعروف مخافة أن يكون إذا أخرجه لم يصبر، وجزع، فوقع فيما هو أردى منه، فكان في حبسه إياه مزريًا على نفسه من ادِّخاره حين عدم من نفسه الثقة بالله تعالى والسكون إليه دون الشيء، فيكون كذلك حتى يقوى عزمه.

قلت: فكيف مَلكَ الأنبياء عليهم السلام الأموال والضِّياع، مثل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

داود وسليمان وإبراهيم وأيوب ونظرائهم، ويوسف عليه السلام على خزائن الأرض، ومحمد صلى الله عليه وسلم، والصالحين من بعد؟

فقال: هذه مسألة كبيرة وفيها كثير.

اعلم أن الأنبياء عليهم السلام، والعلماء والصالحين من بعدهم رضي الله عنهم، أُمناء الله تعالى في أرضه على سِرِّه وعلى أمره ونهيه وعلمه، وموضع وديعته، والنصحاءُ له في خلقه وبريّته، وهم الذين عقلوا عن الله تعالى أمرهَ ونهيه، وفهموا لماذا خلقهم وما أراد منهم وإلى ما ندبهم، فوافقوه في محبّته، ونزلوا في الأمور عند مشيئته، ثم وقفوا عند ذلك مواقف العبيد الألبَّاء، القابلين عن الله والحافظين لوصيّته، وأصغوا إليه بآذان فُهومهم الواعية وقلوبهم الطاهرة، ولم يتخلفوا عن ندبته، فسمعوا الله عز وجل يقول: «ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ»، ثم قال: «ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ»، وقال تعالى: «لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ»، وقال تعالى: «أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ»، فأيقن القوم أنهم وأنفسهم لله تعالى، وكذلك ما خوَّلهم وملَّكهم، فإنما هو له، غير أنهم في دار اختبار وبلوى، وخُلقوا للاختبار والبلوى في هذه الدار.

وهكذا يُروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين سمع «هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا»، قال: يا ليتها تمَّت. يعني

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عمر، قبل قراءة «إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ» فهمهم - يُقال في التفسير: عجز في التلاء عجزًا. ومعنى قول عمر رضي الله عنه «يا ليتها تمَّت»، يعني لم يخلق حين سمع الله تعالى يقول: «لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا». وذلك من معرفة عمر رضي الله عنه بواجب حق الله وقدر أمره ونهيه، وعجز العباد عن القيام به، وقيام الحجة لله تعالى عليهم عند تقصيرهم وما تواعدهم به إذا ضيعوا.

ويُروى عن الحسن رضي الله عنه أنه قال: إن الله تعالى إنما أهبطَ آدم عليه السلام إلى الدنيا عقوبة، وجعلها سجنًا له حين أخرجه من جواره وصيَّره إلى دار التعب والاختبار.

ويُروى في الحديث أن الله لما خلق آدم قبل أن ينفخ فيه الروح، فعلم الله تعالى ما يكون من ذريته، أراد أن يمحقه. قال الشيخ أبو سعيد رحمه الله: قال رجل من البدلاء النبلاء رحمه الله: ليته مَحقه ولم يُخلق.

فَمَن ملك، من أهل العمل عن الله تعالى وأهل الصدق، شيئًا من الدنيا، فهو معتقد أن الشيء لله جل وعز، لا له، إلا هو من طريق حق ما خوَّله الله تعالى، وهو مُبلى به حتى يقوم بالحق فيه، لأن النعمة بلاء، حتى يقوم العبد بالشكر فيها ويستعين بها على طاعة الله تعالى.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكذلك البلوى والضراء هو اختبار وبلاء حتى يصبر عليه، ويقوم بحق الله تعالى فيه.

وكذلك قال بعض الحكماء: العلم كله بلاء حتى يُعمل به.

قال الله عز وجل: «ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ»، وقال: «وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ». فالأنبياء صلوات الله عليهم، والصالحون من بعدهم، الذين أشعرهم الله بأن أبلاهم في الدنيا بالسعة وخوّلهم، كانوا إلى الله جل وعز ساكنين لا إلى الشيء، وكانوا خزّانًا لله جل ذكره في الشيء الذي ملّكهم، ينفذونه في حقوق الله تعالى غير مقصرين ولا مفرطين ولا مُتوانين ولا متأوّلين على الله التأويل، وكانوا غير متلذذين بما ملكوا، ولا مشغولي القلوب بما ملكوا، ولا مستأثرين به دون عباد الله تعالى.

Telegram:@mbooks90

ومن ذلك ما رُوي عن سليمان بن داود عليهما السلام في ملكه، وما أباحه الله تعالى من الكرامة حين يقول تعالى: «هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ». قال أهل التفسير: لا حساب عليك في الآخرة، وإنما كان عطاء هينًا إكرامًا من الله عز وجل له. فذكر العلماء أن سليمان عليه السلام كان يُطعم الأضياف الحوّارَى النقي، ويُطعم عياله الخشكار، ويأكل هو الشعير.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكذلك روى العلماء أن إبراهيم الخليل صلوات الله عليه كان لا يأكل إلا مع الضيف، فربما لا يأتيه ثلاثة أيام الضيفُ فيطويها، وربما كان يمشي الفرسخ أو أقل أو أكثر تلقيًا للضيف.

وكان أيوب النبي صلى الله عليه وسلم لا يسمع أحدًا يحلف بالله تعالى إلا رجع إلى منزله فكفَّر عنه.

وروى العلماء أن يوسف عليه السلام كان على خزائنِ الأرض، فكان لا يشبع، فقيل له في ذلك، فقال: «أخاف أن أشبع فأنسى الجياع».

ولقد رُوي أن سليمان عليه السلام، بينما هو ذات يوم والريح تحمله، والطير تظله، والجن والإنس معه، وعليه قميص جديد، فلصق ببدنه، فوجد اللذة، فسكنت الريح ووضعته على الأرض، فقال لها: «ما لكِ؟»، قالت: إنما أُمرنا أن نطيعك ما أطعت الله. ففكر في نفسه من أينَ أُتي، فذكر، فراجع، فحملته الريح. ولقد رُوي أن الريح كانت تضعه في اليوم مرات من هذا وأشباهه.

فالقوم كانوا خارجين من ملكهم في ملكهم، ناعمين بذِكر الله وعبادته، غير ساكنين إلى ما ملكوا، لا يستوحشون من فقده إن فقدوه، ولا يفرحون بالشيء، ولا يحتاجون إلى العلاج والمجاهدة في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إخراجه، قال الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم: «أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ».

وهذا النبي صلى الله عليه وسلم، بينما جبريل عليه السلام عنده، إذ تغيَّر جبريل، فإذا ملَك قد نزل من السماء لم ينزل قَطُّ، فقال جبريل عليه السلام: خشيت أنه نزل فيَّ بأمر. فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم بالسلام من عند الله عز وجل، وقال له: هذه مفاتيح خزائن الأرض، تسير معك ذهباً وفضة، مع البقاء فيها إلى يوم القيامة، ولا تنقصك مما لك عند الله شيئًا. فلم يخترِ النبي صلى الله عليه وسلم ذلك، وقال: «أجوع مرة وأشبع مرة». وعدَّ ذلك من الله عز وجل بلوى واختبارًا، ولم يره من الله تعالى اختيارًا، ولو كان من الله تعالى اختيارًا لقبله، ولكنه علم أن محبة الله تعالى في الترك للدنيا والإعراض عن زينتها وبهجتها. وبذلك أدبه الله تعالى حين قال تعالى: «وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ».

ويُروى عنه صلى الله عليه وسلم، أنه لبس حلَّة لها عَلَم، فطرحها وقال: «كادت أن تلهيني أعلامُها - أو قال: ألهتني أعلامُها - خذوها وائتوني بأَنبِجانيَّة».

وكذلك رُوي أنه صُنع له خاتم ذهب ليختم به الكتب إلى مَن أمره الله تعالى بإنذاره، فلبسه ثم طرحه من يده، وقال لأصحابه: «إليه نظرة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وإليكم نظرة».

وكذلك رُوي أنه صلى الله عليه وسلم غيَّر شِرَاك نعله فجعل مكانه جديدًا، فقال: «رُدوا الشِّرَاك الأول».

وكذلك كل قلب طاهر صافٍ، قد أشرف على الآخرة، وعرف قيام الله تعالى عليه، يفزع من خفايا السكون إلى الدنيا والتحلي بشيء منها. ومثل هذا في الأخبار كثير، والعاقل الفطين تكفيه الإشارة إليه بالشيء.

وهذا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم حين حثَّهم على الصدقة:

جاء أبو بكر بماله كله لأنه كان أقوى القوم، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «ما خلَّفت لعيالك؟». قال: الله ورسوله، ولي عند الله مزيد. أفلا ترى أبا بكر رضي الله عنه إنَّما كان سَكونًا إلى الله تعالى لا إلى الشيء، ولم يكن لشيء عنده قدر، وكان ما عند الله عنده أسرُّ، فحين رأى موضع الحق لم يخلف منه شيئًا، وقال: خلَّفت الله ورسوله؟

ثم جاء عمر رضي الله عنه بنصف ماله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما خلَّفت لعيالك؟». قال: نصف مالي، ولله عندي مزيد. فقد أعطى نصف ماله، ويقول: ولله عندي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثم عثمان رضي الله عنه يُجهِّز جيش العسرة كله بجميع ما يحتاج إليه، ويحفر بئر رومة.

أفلا ترى أن القوم إنما كانوا مُعدِّين الشيء لله تعالى؟

ومما يدل على صدق قولنا، أن القوم كانوا خارجين مما ملكوا، وهو في أيديهم يُعدونه لله عز وجل. وقد رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إنا معاشر الأنبياء لا نورث، وما خلَّفناه صدقة».

أفلا ترى أنهم في حياتهم لم يضنوا بالشيء عن الله عز وجل؟ وكذلك لم يورِّثوه، وخلفوه لله عز وجل كما كان في أيديهم لله تعالى، لم يحدثوا فيه ولم يخوِّلوه من بعدهم أحدًا؟ وإن هذا البلاغ لمَن عقل عن الله تعالى وأنصف نفسه.

وهذا أئمة الهدى بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم:

أبو بكر رضي الله عنه، حين ملك الأمر، وجاءته الدنيا راغمة من حلِّها، لم يرفع بها رأسًا ولم يتصنع، وكان عليه كساء يُخلِّله، وكان يدعى «ذو الخلالين»!

وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حين جاءته الدنيا راغمة من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حلّها، وكان طعامه الخبز والزيت، وفي ثوبه بضع عشرة رقعة بعضها من أدم، وقد فُتحت عليه كنوز كسرى وقيصر!

وهذا عثمان رضي الله عنه، كأنه واحد من عبيده في اللباس والزيّ! ولقد رُوي عنه أنه رُؤي خارجًا من بستان له وعلى عنقه حزمة من حطب، فقيل له في ذلك، فقال: أردت أن أنظر نفسي هل تأبى؟ أفلا ترى أنه كان غير غافل عن نفسه وتعاهدها ورياضتها؟!

وهذا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، في الخلافة، قد اشترى إزارًا بأربعة دراهم، واشترى قميصًا بخمسة دراهم، فكان في كمّه طول، فتقدم إلى خرّاز فأخذ الشفرة فقطع الكمّ مع أطراف أصابعه وهو يفرق الدنيا يَمنة ويَسرة!

وهذا الزبير رضي الله عنه، يخلّف حين مات من الدَّين مائتَي ألف أو أكثر، كل ذلك من الجود والسخاء والبذل!

وهذا طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه، يعطي حليّ أهله لمَن سأله.

فهذا يدل على أن القوم كانوا كما قال الله عز وجل حين أمرهم فقال: «وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ». ولا يستحيي عبد من عبيد الله من أهل زماننا هذا، عندما ملك من الشبهات التي علم الله تعالى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كيف هي، ومن أين هي، وكيف قدرها في قلبه، وإيثاره لها، وسكونه إليها دون الله عز وجل، وما لا يُحصى من عيبه في تقلُّبه في ذلك واشتغاله بذلك. حتى إن أحدهم ليزعم أنه يملك كما ملكَ مَن مضى، ويحتج بهم في اتباع هواه مع إقامته على خلاف سُنة القوم.

بل الاعتراف لله تعالى بالتقصير من العبد الغافل أقرب إلى النجاة، وسؤاله الله عز وجل أن يبلغه ما بلغ بالقوم، وبالله التوفيق.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

باب الصدق في الزهد، وكيف هو؟ وما هو؟

ولقد فضح الله تعالى الدنيا، وسمَّاها بأسماء لم يُسمِّها أحد، فقال تبارك وتعالى: «أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ». أفلا يستحيي مَن يعقل عن الله تعالى أن يراه ساكنًا إلى اللهو واللعب في دار الغرور؟

قلت: الدنيا في نفسها ما هي؟

قال: اتفق البُصراء من الحكماء على أن الدنيا هي النفس وما هويت. والحجة في ذلك أن الله عز وجل قال: «زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا». فهذه الأمور التي ذكرها الله عز وجل هي من هوى النفس ولذتها، وبها تلهو عن الآخرة وذكرها. فإذا ترك العبد ما تهواه النفس ترك الدنيا. ألا ترى أن العبد قد يكون فقيرًا لا شيء له، وهو يتمنى الدنيا ويهوى مجناها، وينوي أن لو أمكنه منها ما يريد لتمتَّع بذلك ونال لذته؟ فهو عند الله تعالى من الراغبين على قدر همته، إلا إنه أقل حسابًا ممن نالها واستمتع بها.

فأول درجات الزهد، هو الزهد في اتباع هوى النفس. فإذا هانت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على المرء نفسه لم يبالِ على أي حال أمسى وأصبح، إذا وافق محبة الله تعالى عند ذلك على مخالفة نفسه، ومنعها من محبوبها من الشهوات واللذات والراحات، ومقارنة الأحباء والأخدان والأصحاب من أهل الغفلة، إلا مَن كان منهم غويًّا على ذلك الأمر الذي يريده العبد، فإن آفة العبد صحبة مَن يريد ما يريد.

ثم أخذُ البلغة من الطعام والشراب واللباس والمنزل والنوم والكلام والنطق والاستماع، وترك التمنّي لشيء من الدنيا، والحذر من تحليها، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الدنيا خضرة حلوة». فيتوهم العبد فناءها، فيقصر فيها أمله، مع توقع الموت، والتشوّف إلى الآخرة، والشوق إلى النزول في دار بقائها، والعمل في ذلك. ولذلك يخلع الراحة من القلب بدوام الفكرة، ومن البدن بدوام الخدمة.

فهذا أول درجات الزهد.

وقال سفيان الثوري رحمه الله تعالى، ووكيع بن الجرَّاح، وأحمد بن حنبل، وغيرهم، رحمهم الله: إن الزهد في الدنيا قصر الآمال.

وهذا يدل على ما قالت الحكماء، لأنه مَن قصر أمله لم ينعم، وكانت الغفلة منه بعيدة.

وقالت طائفة من الناس: الزاهد في الدنيا هو الراغب في الآخرة،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الذي قد جعلها نُصب عينه، كأنه يرى عقابها وثوابها، فهو عازف عن الدنيا.

وهكذا يُروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لحارثة: «كيف أصبحتَ يا حارثة؟»، قال: مؤمنًا حقًّا يا رسول الله. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «وما حقيقة إيمانك؟»، قال: عزفت نفسي عن الدنيا، فأظمأت لذلك نهاري، وأسهرت ليلي، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزًا، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتناعمون، وإلى أهل النار يتعاوون. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «مؤمن نوَّر الله قلبه، عرفتَ فالزَم».

وقال بعض العلماء: الزهد خروج قيمة الأشياء من القلب.

والزهد في الدنيا يدق جدًّا ويخفى، ولكل عبد على قدر علمه بالله تعالى زهد. فمن نفى الرغبة في الدنيا عن قلبه شيئًا بعد شيء حتى يرى غاية الزهد، ومن توانى عن نفسه ولم يُخالفها عند هواها، لم يعزف عن الدنيا ولم يشرف على الآخرة.

قال بعض العلماء: الزاهد في الدنيا حقًّا، لا يذم الدنيا ولا يمدحها، ولا يفرح بها إذا أقبلت، ولا يحزن عليها إذا أدبرت.

قال أبو سعيد رحمه الله تعالى: قال بعض البدلاء رحمهم الله تعالى: لا يكون زاهدًا مُستكمل الزهد، أو يستوي عنده الحجارة والذهب، ولا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يستوي الحجارة والذهب حتى يكون معه من الله تعالى آية، فتُحوِّل الحجارة ذهبًا، فعندها يخرج قيمة الأشياء من قلبه.

وسمعته يقول: لم يستوِ الحجارة والذهب عند أحد من الصحابة رضي الله عنهم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلا عند أبي بكر رضي الله عنه.

قلت: فعلى أي معنى زهدَ الزاهدون؟

قال: على معانٍ شتى.

فمنهم مَن زهد لفراغ القلب من الشغل، وجعل همه كله في طاعة الله تعالى وذكره وخدمته، فكفاه الله عند ذلك. فهكذا رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: «مَن جعل الهم همًّا واحدًا كفاه الله سائر همومه». وقال عيسى عليه السلام: «بحقٍّ أقول لكم: إن حب الدنيا رأس كل خطيئة، وفي المال داء كبير». قالوا: يا روح الله، ما داؤه؟ قال: «لا يعطي حقه». قالوا: فإن أعطى حقه؟ قال: «يكون فيه فخر وخيلاء». قالوا: فإن لم يكن فيه فخر ولا خيلاء؟ قال: «يشغله استصلاحه عن ذكر الله».

ومنهم مَن زهد لخفَّة الظهر وسرعة الممر على الصراط، إذا حُبس أصحاب الأثقال للسؤال. فهكذا رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أنه قال: «عُرِض عليَّ أصحابي، ففقدت عبد الرحمن بن عوف ـ أو قال: احتبس عليَّ ـ فقلت: ما بطَّأك عليَّ؟ قال لم أزل أُحاسَب بعدل مكثرة مالي حتى جرى مني من العرَق ما لو وردتْ عليه سبعون من الإبل عطاشًا قد أكلت حمضًا لصدرت عنه رواء». وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم من غير طريق أنه قال: «الأكثرون هم الأقلون يوم القيامة، إلا مَن قال بالمال هكذا وهكذا ـ عن يمينه وعن شماله، ومن بين يديه ومن خلفه ـ بين عباد الله». قال صلى الله عليه وسلم: «ما من غنيٍّ ولا فقير إلا ودَّ يوم القيامة أن الله تعالى كان جعل رزقه في الدنيا قوتًا». وروى أبو ذر عن النبي صلى الله وسلم أنه قال: «ما يسرني أن لي مثل أحد ذهبًا أنفقه في سبيل الله تعالى تأتي عليَّ ثالثة يكون منه عندي شيء، إلا دينار أرصده لدين».

ومنهم مَن زهد رغبة في الجنة واشتياقًا إليها، فسلى عن الدنيا وعن لذَّاتها حتى طال به الشوق إلى ثواب الله تعالى الذي دعاه إليه ووصفه له عز وجل. وروي في الحديث أن الله جل ذكره يقول: «وأما الزاهدون في الدنيا فإني أبيحهم الجنة». وقال بعض العلماء: لا تحسن قراءة إلا بزهد.

وأعلى درجات الذين زهدوا في الدنيا، هم الذين وافقوا الله تعالى في محبته، فكانوا عبيدًا عُقلاء عن الله عز وجل، أكياسًا مُحبين، سمعوا الله جل ذكره ذمَّ الدنيا ووضع من قدرها، ولم يرضَها دارًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لأوليائه، استحيوا من الله عز وجل أن يراهم راكنين إلى شيء ذمه ولم يرضَه، وجعلوا ذلك على أنفسهم فرضًا، لم يبتغوا عليه من الله عز وجل جزاء، ولكن وافقوا الله في محبته كرمًا، والله لا يُضيع أجر مَن أحسن عملًا. فأهل الموافقة لله تعالى في الأمور هم أعقل العبيد وأرفعهم عند الله قدرًا. وهكذا رُوي عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال: يا حبذا نوم الأكياس وإفطارهم، كيف غنموا سهر الحمقى وصيامهم؟! ولمثقال ذرة من صاحب تقوى ويقين أوزن عند الله من أمثال الجبال من أعمال المغترّين.

وفي هذا بلاغ لمَن عقل عن الله عز وجل، وبالله التوفيق.

ورُوي عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، أنه نظر إلى شاب مُصفر. فقال له: ما هذا الصفار يا غلام؟ قال: أسقام وأمراض يا أمير المؤمنين. قال: لِتَصدقْني. قال: أسقام وأمراض. قال: لِتُخبرْني. قال: يا أمير المؤمنين، عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي حجرها وذهبها، وكأني أنظر إلى أهل الجنة في الجنة يتزاورون، وأهل النار في النار يتعاوون. فقال له عمر: أنَّى لك هذا يا غلام؟ قال: اتقِ الله يفرغ عليك العلم إفراغًا. إنه لما قصر بنا عن علم ما عملنا، تركنا العمل بما علمنا، ولو عملنا ببعض ما علمنا لورثنا علمًا لا تقوم له أبداننا.

ورُوي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه استسقى، فأُتي بإناء،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فلما قرَّبه إلى فيه وذاقه نحَّاه ثم بكى، فقيل له في ذلك، فقال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وهو يدفع بيديه كأن شيئًا يقع ولا أرى شيئًا، فقلت يا رسول الله، أراك تدفع بيديك ولا أرى شيئًا! فقال: «نعم، تلك الدنيا تمثلت لي في زينتها، فقلت إليكِ عني، فقالت إن تنجو مني فلن ينجو مني من بعدك». قال أبو بكر رضي الله عنه: فأخاف أن تكون قد أدركتني. قال: وكان في الإناء الذي شرب أبو بكر رضي الله عنه منه ماء وعسل، فبكى إشفاقًا من ذلك.

ويُروى في بعض الحديث، أن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم لم يأكلوا تلذُّذًا ولم يلبسوا تنعُّمًا. وفي رواية: أن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم الذين اتسعوا في الدنيا من بعده، حين فُتحت عليهم من حلها، أنهم بكوا من ذلك وأشفقوا، وقالوا: نخاف أن تكون عُجِّلت لنا حسناتنا.

فليتقِ الله عبدٌ، ولينصف من نفسه، وليلزم منهاج من مضى، وليعترف بالتقصير، ويسأل الله الإقالة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

باب الصدق في التوكل على الله عز وجل

قال الله عز وجل: «فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ»، وقال تعالى: «وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ»، وقال تعالى: «إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ».

ورُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «يدخل الجنة من أمتي سبعونَ ألفًا بغير حساب، وهم الذين لا يتطيرون، ولا يكتوون، ولا يسترقُون، وعلى ربهم يتوكلون».

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا وتروح بطانًا».

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: العز والغنى يجولان في طلب التوكل، فإذا أصاباه أوطنا.

فالتوكل في نفسه، وموجوده في القلب: هو التصديق لله عز وجل، والاعتماد عليه، والسكون إليه، والطمأنينة إليه في كل ما ضمن، وإخراج الهم من القلب بأمور الدنيا والرزق، وكل أمر تكفل الله به، والعلم بأن كل ما احتاج إليه العبد من أمر الدنيا والآخرة، فالله

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مالكه والقائم به لا يوصله إليه غيره، ولا يمنعه غيره، مع خروج الرغبة والرهبة والخوف من القلب ممن سوى الله تعالى، والثقة به والعلم الخالص واليقين الثابت أن يد الله المبسوطة إليه، الموفية له من كل ما طلب، فلا يصل إليه معروف إلا من بعد أمره، ولا يناله مكروه إلا من بعد إذنه.

وهكذا رُوي عن الفضيل أنه قال: المتوكل على الله الواثق به، لا يتهمه ولا يخاف خذلانه.

وكذلك المتوكل على الله إذا ملَّكه الله تعالى شيئًا من أمر الدنيا وفضل عنده، لم يدخره لغدٍ إلا بالنية أن الشيء إنما هو لله، وموقوف لحقوق الله، وهو خازن من خزَّان الله، فإذا رأى موضع الحاجة سارع إلى الإخراج والبذل والمواساة، وكان في الذي يملك وإخوانه سواء. وإنما يجب ذلك عليه لأهل الستر خاصة والقرابة وأهل التقوى، ثم لعامة المسلمين إذا رآهم على حال ضرورة غيَّر نقص حالهم.

ورُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ليس الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال ولا بإضاعة المال، ولكن الزهد في الدنيا أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك، وإذا أصابتك مصيبة كنت بثوابها أفرح منك بها لو بقيت عنك».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقال بلال رضي الله عنه: جئت إلى النبي صلى الله عليه وسلم ومعي تمر، فقال: «ما هذا؟»، فقلت شيء ادخرته لإفطارك، فقال: «أنفق بلال ولا تخشَ من ذي العرش إقلالًا، أما خشيت أن يكون له بخار في جهنم؟!».

ويُروى عن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: إني لست كأسماء - يعني أختها - إن أسماء لا ترفع شيئًا لغد، وأنا أجمع الشيء إلى الشيء.

ورُوي عن عائشة أيضًا رضي الله عنها، أنها فرَّقت الدراهم وهي ترفع درعها، فقالت لها خادمتها: ألا أبقيتِ درهمًا للحم؟ قالت: أفلا ذكَّرتِني؟!

وروت عائشة رضي الله عنها، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه بات في مرضه الذي قُبض فيه شبيهًا بالقلِق، فلما أصبح قال: «ما فعلت الذهبية؟»، وكان قيمتها ستة وخمسين درهمًا، فقال: «أخرجيها، فما ظن محمد بربه لو لقيه وهذه عنده؟!».

ورُوي عن مسروق رحمة الله عليه، أنه قال: أوثق ما أكون بالله إذا قالت الخادم ليس عندنا شيء.

قلت: فالتوكل على الله تعالى بالأسباب أو بقطع الأسباب؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قال: بقطع أكثر الأسباب، وتخطى إلى المسبب فتسكن إليه.

قلت: وهل يتداوى المتوكل أو يتعالج؟

قال: الأمر في هذا على معانٍ ثلاثة، وقد خص تبارك وتعالى بترك الدواء والأسباب طائفةً، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفًا بلا حساب، هم الذين لا يكتوون، ولا يسترقُون، وعلى ربهم يتوكلون». وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما توكل مَن اكتوى واسترقى». وقال صلى الله عليه وسلم: «مَن ردَّته الطيرة فقد قارن الشرك». وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالدواء والرُّقى، وأمر بالرقية، وقطع لأُبيّ بن كعب رضي الله عنه عرقًا. فهذا على معاني قول المغيرة بن شعبة: لم يتوكل مَن اكتوى واسترقى من هؤلاء السبعين ألفًا الذين خصهم النبي صلى الله عليه وسلم. كذلك فسَّره بعض العلماء.

وما كان من سوى ذلك فمُباح لهم من سائر الناس، وهو غير ناقص من توكلهم إذا كان معهم العلم والمعرفة، وكان نظرهم إلى رب الداء والدواء، إن شاء أن ينفع بالدواء، وإن شاء أن يضر.

وقد طلب شفاءه بالدواء فيكون فيه سقمه، وقد مات غير إنسان من الدواء وقطع العرق، ولما طلب الشفاء، وقد يرجو منفعته في الشيء فتكون فيه مضرته، وقد يخاف الضرر من شيء فتكون فيه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المنفعة.

فالصادق واثق متوكل على ربه، فإنما توكل عليه حين علم أنه حسبه من جميع خلقه، فلم يجد فقد شيء منعه الله، لأن الله حسبه وهو بالغ أمره.

قلت: فَمَن قال أتوكل على الله لأُكفى؟

قال: لا يخلو هذا القول من معنيين:

معنى أن يكفيه مؤنة الجزع والهلع، لأنه يتحول عنه شيء قد قدَّره الله عليه أن ينزل به بالتوكل. فهذا قولنا وقول مَن أثبت القدر.

ومَن قال إنه يكفيه ما استكفاه لا محالة، مثل قوله: لا يأكلني السبع لتوكُّلي، والذي يأتيني بطلب يأتيني بلا طلب، فالتوكل يدفع عني إذا استكفيته كل مؤنة كنت أخافها. فليس يعجبنا هذا القول، لأن المتوكل قد يُكفَى وقد لا يُكفَى، وتوكله غير ناقص.

قلت: مثل ماذا؟ اشرح لي من ذلك شيئًا.

قال: نعم، حيث ذبحتْ يحيى بن زكريا امرأةٌ جبارة في طشت، لم يكن متوكلًا؟!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وحين نُشر زكريا صلوات الله عليه بالمنشار، لم يكن متوكلًا؟!

وكذلك الأنبياء عليهم السلام، قُتلوا ونِيل منهم المكروه، وهم أقوى الخلق يقينًا وأصدقه!

وهذا محمد صلى الله عليه وسلم حين هرب إلى الغار هو وأبو بكر رضي الله عنه فاختبأوا فيه، وحين كسر المشركون رباعيته صلى الله عليه وسلم وأدموا وَجهه، لم يكن مُتوكلًا؟!

أفلا ترى أن التوكل إنما هو الاعتماد على الله عز وجل والسكون إليه، ثم التسليم بعد ذلك لأمره، يفعل ما يشاء؟

وهكذا رُوي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ»، قال: قاضٍ أمره. «قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا»، قال: أجلًا ومُنتهى ينتهي إليه العبد، وليس المتوكل بالذي يقول: تُقضى حاجتي. فهذا تفسير ابن مسعود رضي الله عنه، يخبر أن المتوكل على الله هو الذي يلجأ إلى الله تعالى، ويعلم أنه لا يتم شيء إلا من قِبَل الله تعالى الذي يُعطي ويمنع بقدرته.

فالمتوكل على الله تعالى لا يستوحش في حالة المنع، ولا يستجلب بالتوكل الإعطاء، لأن الحرص لا يعطي ولا يمنع، والله جل وعز

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مانع ومُعطٍ.

وقد يُعطَى العبدُ الشيءَ بلا توكل، ويُمنع وهو مُتوكل. فقد يُرى المجوسي والكافر والجاحد والفاجر المضيع لأمر الله عز وجل، الذي لا صدق له ولا يقين، فقد يُرَون هازلين يكفرون وتُقضى لهم الحوائج! والمتوكل الصادق الموقن لا تُقضى له حاجة حتى يموت ضراء وهزلاء!

وإنما التوكل ترك السكون إلى أسباب الدنيا، ونفي الطمع من المخلوقين والإياس منهم، حين علم المتوكل أنه صائر إلى المعلوم فرضيَ بالله تعالى، وعلم أنه لا يدرك بالتوكل تعجيل ما أخَّر الله تعالى ولا تأخير ما عجَّل، ولكنه اكتسب إسقاط الهلع والجزع، واستراح من عذاب الحرص، وراضَ نفسه بأدب العلم والمعرفة، وقال ما قُدِّر سيكون، وما يكون فهو آتٍ.

وكذلك قال بعض الحكماء: انتقم من حرصك بالقنوع، كما تنتقم من عدوك بالقصاص.

وقال بعض الصحابة رضوان الله عليهم: دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وفي البيت تمرة غابرة، فقال: «خذها، لو لم تأتِها لأتتك».

حدثنا محمد بن يعقوب، قال حدثنا أحمد بن حنبل، قال حدثنا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مروان بن معاوية، قال حدثنا المُعلَّى، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: أُهدي إلى النبي صلى الله عليه وسلم طوائر، فأطعم خادمًا طائرًا، فلما كان من الغد أتيته به، فقال: «ألم أنهَك أن تخبئ رزقًا لغد؟».

فهذا ما لا يسع الناس جهله من التوكل، وغاية التوكل أجلُّ من ذلك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

باب الصدق في الخوف من الله عز وجل

قال الله تعالى: «وَإِيَّىَ فَٱتَّقُونِ»، «وَإِيَّىَ فَٱرْهَبُونِ»، وقال تعالى: «فَلَا تَخْشَوُا ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ»، وقال تعالى: «يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ»، وقال تعالى: «كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا»، وقال تعالى: «وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ»، وقال تعالى: «يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ».

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «خَفِ الله كأنك تراه». قال ذلك لابن عباس رضي الله عنه.

فالذي يهيج الخوف حتى يسكن القلب، هو دوام المراقبة لله عز وجل في السر والعلانية، وذلك لعلمك بأن الله تعالى يراك، ولا يخفى عليه شيء من حركاتك ظاهراً وباطناً. فعند ذلك يجل مقامه عليك في كل حركة ظاهرة وباطنة، وتحذر أن يرى بقلبك شيئاً مما لا يحبه ولا يرضاه، بالوقوف منك على همك إذا كان يعلم ما في نفسك. فمَن ألزم قلبه في الحركات كلها أن الله تعالى يراه، رجع عن كل ما يكره بعون الله، فطهر قلبه واستنار، وسكنه الخوف، ودام حذره من الله، فكان مشفقًا في جميع الأحوال، وعظَّم أمر الله تعالى في قلبه، فلم تأخذه في الله لومة لائم، وقلَّ وصغر من دون الله في عينه ممن ضيع أمر الله.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وذِكْر الخوف يطول، وهذه الأصول التي مَن استعملها تؤديه إلى الحقائق، فهذا ظاهر الخوف، وما بقي من صفته أكثر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

باب الصدق في الحياء من الله عز وجل

يُروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الحياء من الإيمان»، ورُوي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الحياء خير كله»، وقال صلى الله عليه وسلم: «استحيوا من الله حق الحياء، مَن استحيا من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما حوى، والبطن وما وعى، وليذكر المقابر والبلى، ومَن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا»، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «استح من الله كما يُستحيا من رجل صالح من قومك».

وقال رجل: يا رسول الله، ما نُبدي من عوراتنا وما نذر؟ قال: «استر عورتك إلا من أهلك وما ملكت يمينك». قال: فأحدنا يكون خاليًا؟ قال: «فالله أحق أن يُستحيا منه».

وكان أبو بكر رضي الله عنه إذا ذهب إلى الخلاء يُغطي رأسه ويقول: إني لأستحي من ربي.

Telegram:@mbooks90

وهذه أخبار تدل كلها على قُرب الله عز وجل من القوم، لأن المُستحيي من الله تعالى يرى اطِّلاع الله تعالى عليه، ومشاهدته له في جميع الأحوال.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قلت: فالذي يُهيج الحياء؟

قال: ثلاث خصال:

الأولى: دوام إحسان الله تعالى إليك، مع تضييع الشكر منك، ومع دوام إساءتك وتفريطك.

والثانية: أن تعلم أنك بعين الله عز وجل في مُنقلبك ومثواك.

والثالثة: ذِكرك لوقوفك بين يدَي الله عز وجل، ومُساءلته إياك عن الصغير والكبير.

قلت: فالذي يشيد الحياء ويقويه؟

قال: الخوف لله عز وجل عند الهوى الخاطر الواقع في القلب، فيفزع القلب ويستوحش عندما يعلم أن الله تعالى يرى ما فيه، فيثبت الحياء من الله، فإذا دام على ذلك زاد الحياء وقوي.

قلت: فالذي يولد الحياء ما هو؟

قال: الفزع من أن يكون الله تعالى عنه مُعرِضًا، وله ماقتًا، ولفعله غير راضٍ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قلت: فالغالب على قلب المُستحيي من ربه؟

قال: إجلال رؤية مَن يراه، فحينئذ يهاب الله عز وجل ويستحيي منه.

قال أبو سعيد رحمه الله تعالى: سمعت بعض المريدين سأل بعضَ أهل المعرفة، قال: ما علامة هيبة الله في قلب العارف بالله؟ قال: إذا استوى عنده الأفعى والذباب.

قلت: فبمَ يضعف الحياء؟

قال: بترك المحاسبة وترك الورع.

قلت: فكيف أحوال المُستحيي في نفسه؟

قال: طول الخشوع، ودوام الإخبات، وتنكُّس الرأس، وانحصار الطَّرْف، وقلة النظر إلى السماء، وكلال اللسان عن كثير من الكلام، والفزع من التكشُّف في الخلاء، وترك العبث والضحك، والحياء عند إتيان ما أباحه الله، فكيف بذكر عارض مما نهى الله تعالى عنه؟

والناس يتفاوتون في الحياء على قدر قُرب الله تعالى منهم، وقُربهم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

منه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

باب الصدق في معرفة نِعَم الله تعالى والشكر له

قال الله عز وجل: «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا»، وقال تعالى: «وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ»، وقال: «ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ».

فإذا أفاق العبد من الغفلة، فكَّر ونظر إلى نعم الله تعالى عليه، وتكاملها قديمًا وحديثًا.

فأما نِعَمه القديمة، فذِكره لك قبل أن تكُ شيئًا، وما خصَّك به من توحيده والإيمان به والمعرفة له، فأجرى باسمك القلم في اللوح المحفوظ مُسْلِمًا، ثم أهلك القرون السالفة، وجعلك في شرذمة من المؤمنين ناجية، حتى أخرجك في خير أمة وأكرم دين، ومن أمة حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم، ثم هداك للسنة، واستعملك بالشريعة، وباعدك من الزيغ والأهواء، ثم ربَّاك وكلأك وغذاك، حتى وجبتْ عليك الأحكام. فأغفلت نعمته، وفرطت في حفظ وصيته، وركبت هواك من عمرك حينًا، وفي كل ذاك لا يُكافئك بإساءتك، بل يسترك ويحلم عنك، ويُنظرك. ثم عطف عليك بعد ذلك بعدما كنت شرودًا، فأيقظك من الغفلة، وعرَّفك ما فاتك من حظك من طاعتك، فوهب لك الإنابة إليه، وأجلسك على طيِّب مرضاته.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فوجب عليك الآن شكرٌ بعد شكر، فأي نعماه تُحصي؟ وعلى أيها تشكر؟

ولا بد من معرفة الشكر ومباشرته.

والشكر على ثلاثة وجوه: شكر القلب، وشكر اللسان، وشكر البدن.

فأما شكر القلب، فهو أن تعلم أن النعم من الله وحده لا من غيره.

وأما شكر اللسان، فالحمد والثناء عليه، ونشر آلائه، وذكر إحسانه.

وأما شكر البدن، فلا تستعمل جارحة، أصحها الله تعالى وأحسن خلقها، في معصية، بل تطيع الله تعالى بها. وكذلك كل ما خوَّلك وملَّكك من الدنيا جعلته عونًا لك على طاعته، ولم تُخوله في باطل، ولم تنفقه في سرف، ثم تبذل لله عز وجل ذِكره وعزَّ جده الخدمةَ، وتعطيه الجهد من نفسك.

وهكذا يُروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قام حتى تورَّمت قدماه، فقيل له: يا رسول الله، ما هذا التعب؟ أليس قد غفر الله لك؟! قال: «أفلا أكون عبدًا شكورًا».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقال الله عز وجل: «اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا»، وقال تعالى: «لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ».

فإذا بلغ العبد من الشكر لله عز وجل غايةً، انقطع فنظر، فإذا شكرُه نعمة من الله تعالى تحتاج إلى أن يشكر الله تعالى عليها، إذ جعله من الشاكرين، فعمل عند ذلك في شكر الشكر، ثم كاد يتحير، تواترت عليه من الله تعالى الألطاف بالبر والكرامات.

وبلغنا أنه فيما ناجى به موسى عليه السلام ربه عز وجل قال: «يا رب، أمرتني بالشكر على نعمتك، وإنما شكري إياك نعمة من نعمك»، فأوحى الله إليه: «لقد علمتَ العلم إذ علمتَ أن ذاك مني، فقد شكرتني».

وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: ذكر النعمة شكر. فدلَّت النعم على محبة المُنعم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

باب الصدق في المحبة

وقد أجمع الحكماء أنها تُستخرج من ذِكر النعم.

ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: «أحِبوا الله لِما يغذوكم من نِعَمه، وأحِبوني لحب الله، وأحِبوا أهل بيتي لحبي». وقال عز وجل: «وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِ».

وبلغني أن الله عز وجل أوحى إلى عيسى عليه السلام: «يا عيسى، بحق أقول لك: إني أحَب إلى عبدي المؤمن من نفسه التي بين جنبيه».

وبلغنا عن الحسن البصري رضي الله عنه، أن ناسًا قالوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله، إنا نحب ربنا حبًّا شديدًا، فجعل الله تعالى لمحبته عَلَمًا، وأنزل عز وجل: «قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ».

فمن صدق المحبة اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم في هديه وزهده وأخلاقه، والتأسي به في الأمور، والإعراض عن الدنيا وزهرتها وبهجتها، فإن الله عز وجل جعل محمدًا صلى الله عليه وسلم عَلَمًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ودليلًا وحجَّة على أمته.

ومن صدق المحبة لله تعالى: إيثار محبة الله عز وجل في جميع الأمور على نفسك وهواك، وأن تبدأ في الأمور كلها بأمره قبل أمر نفسك.

وبلغنا أن موسى عليه السلام قال: «يا رب أوصني»، قال الله عز وجل: «أوصيك بي»، قال: «يا رب كيف توصيني بك؟!»، قال: «لا يعرض لك أمران، أحدهما لي والآخر لنفسك، إلا آثرتَ محبتي على هواك».

فالمحب لله قد جعل ذِكر الله تعالى بقلبه ولسانه فرضًا على نفسه، فهو يتفرغ من الغفلة ويستغفر منها، وكذلك جوارحه إنما هي وقف لخدمة مَن أحبه. فهو غير ساهٍ ولا لاهٍ، وإنما همه أن يُرضي مَن أحبه، فقد بذل المجهود في موافقته في أداء فرائضه واجتناب مناهيه، فهو مُتزين له بكل طاقته، حَذِر من أن يأتي عليه أمر يُسقطه من عين مَن أحبه.

وهكذا رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم من غير طريق أنه قال: «يقول الله عز وجل: ما تقرب إليَّ عبدي بمثل أداء ما افترضتُ عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت له سمعًا وبصرًا ويدًا ومؤيدًا، دعاني فأجبته، ونصح لي فنصحت له».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فعلامة المحب الموافقة للمحبوب، والتجاري مع طرقاته في كل الأمور، والتقرب إليه بكل حيلة، والهرب من كل ما لا يعينه على مذهبه.

قلت: فالمحبة على قدر النعم؟

قال: المحبة بدؤها من ذِكر النعم، ثم على قدر المُنعم على قدر ما يستحق، لأن المحب لله تعالى يحب الله تعالى عند النعم، وعند فقدها، وعلى كل حال، حبًّا صحيحًا، منعه أو أعطاه، أو ابتلاه أو عافاه، فالمحبة لازمة لقلبه على حالة واحدة في العقد، ثم هي إلى الزيادة أقرب.

ولو كانت على قدر النعم لنقصت المحبة إذا نقصت النعم في وقت الشدائد ووقوع البلاء، لكن المحب لله تعالى الذي وله عقله بربه واشتغل برضاه، فكان في شكره لله وذكره حيران، كأنه ليست نعمة على أحد إلا وهي عليه، وهو مشغول بحبه لله عز وجل عن كل الخلق، وقد أسقطت المحبة لله تعالى عن قلبه الكِبر والغل والحسد والبغي، وكثيرًا مما يعنيه من أمر الدنيا من مصلحة، فكيف يذكر ما لا يعنيه؟!

قال بعض الحكماء: مَن أعطى من المحبة شيئًا فلم يعطَ مثله من الخشية فهو مخدوع.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وروي عن الفضيل بن عياض رحمه الله، أنه قال: الحب أفضل من الخوف.

وحدثنا إسماعيل بن محمد، قال حدثني زهير البصري، قال: لقيت شعوانة، فقالت لي: ما أحسن طريقتك إلا إنك تُنكر المحبة! قلت: ما أُنكرها. فقالت لي: أتحب ربك؟ فقلت: نعم. قالت: فكيف تخاف ألا يحبك وأنت تحبه؟! قلت: أنا أحبه لما أولاني وما ندَّاني من معرفته ونِعَمه، ولي ذنوب أخاف ألَّا يحبني لما كسبت. فغُشي عليها، ثم أفاقت فقالت: زه! قال أبو سعيد رحمه الله تعالى: ما أحسن ما قال هذا الرجل، هذا كلام صحيح.

قال أبو سعيد قدَّس الله روحه: قال رجل من رُفعاء البدلاء: مَن يحبْ الله كثير الشأن فيمَن يحبه الله.

وبالله التوفيق، وفي هذا بلاغ لمَن أعانه الله تعالى وسدَّده، وما بقي من صفات المحبين أكثر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

باب الصدق في الرضا عن الله عز وجل

قال الله عز وجل: « فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ». قال بعض العلماء رحمهم الله تعالى: ما شهد الله تعالى لهم بالإيمان حين لم يرضوا بحكم نبيه، فكيف إذا لم يرضوا بحكمه عز وجل؟!

قلت: فما علامة الرضا في القلب؟ وما موجوده؟

قال: سرور القلب بمُر القضاء.

وقال بعضهم: الرضا تلقّي المصائب بالرجاء والبشر.

ورُوي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: كنت خادم النبي صلى الله عليه وسلم، فما قال لي لشيء قَطُّ لمَ فعلت، أو ألا فعلت، إنما كان يقول: « كذا قضى وكذا قدّر».

ورُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: ما أبالي على ما أصبحت وما أمسيت على ما أحب أو على ما أكره، لأني لا أدري أيهما خير لي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقال عمر أيضًا: لو أن الصبر والشكر بعيران لي ما أبالي على أيهما ركبت.

فهذا يدلك على الرضا من قول عمر رضي الله عنه، لأن الصبر لا يكون إلا على ما يكره، والشكر لا يكون إلا على ما يحب، فقال: لا أبالي أيهما وقع لي، وذلك لاستواء الحالين عنده.

ويُروى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: حبذا المكروهات، وايم الله ما هو إلا الغنى والفقر، وإن حق كل واحد منهما لواجب، إن كان الغنى فإن فيه العطف، وإن كان الفقر فإن فيه الصبر.

وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: أصبحت وما ليَ في الأمور من اختيار.

وقال بعضهم: وما ليَ من النعم سوى مواقع القدر فيَّ كائنًا ما كان. وكان قد سُقي السم، فقيل له: تعالج. فقال: لو علمت أن شفائي في أن أمسَّ أنفي أو أذني ما فعلت.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لابن مسعود رضي الله عنه: «يا ابن أم عبد، لا يكثر همك، ما يُقدَّر يكن، وما ترزق تأكله».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقال النبي صلى الله عليه وسلم في قصة طويلة لابن عباس رضي الله عنهما: «فإن استطعت أن تعمل لله بالرضا في اليقين، وإلا ففي الصبر على ما تكره خير كبير». أفلا ترى أنه صلى الله عليه وسلم دعاه إلى أعلى الحالين؟

وقال بعض الحكماء: إذا استتم في العبد الزهد والتوكل والمحبة واليقين والحياء، صحَّ له الرضا. وهو عندنا كما قال، وإلا فهو مع الناس أوقات وخطرات على قدر إيمانهم، ثم يعودون إلى الصبر.

وقال بعضهم: الرضا قليل، ومعول المؤمن الصبر.

فقلت: اشرح لي قول الحكيم: الراضي يتلقى المصائب بالبِشر والسرور.

قال: إن العبد لما صدق في محبته، وقعت بينه وبين الله تعالى المفاوضة والتسليم، فزالت عن قلبه التهم، وسكن إلى حُسن اختيار مَن أحبَّه، ونزل في حُسن تدبيره، وذاق طعم الوجود به، فامتلأ قلبه فرحًا ونعيمًا وسرورًا، فغلب ذلك ألَمَ المصائب والمكروه والبلوى، فصار اسم البلوى عليه مُعلقًا، فيستخرج منه إذا نزل به أمور كبيرة، فتارة يتنعم بعلمه به إذا علم أنه يراه في البلوى، وتارة يعلم أنه ذكره فابتلاه، ولم يغفل عنه، على عظم قدره أن يولي من أمره ما فيه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الصلاح، فيراه تارة يشكو إليه شكوى المحب إلى حبيبه، وتارة يئن إليه، وتارة يطمع أن يراه راضياً عنه. فهكذا قال جلَّ ذِكره: «يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً».

فالرضا تعجَّله العقلاء عن الله عز وجل في الدنيا قبل الآخرة، فخرجوا من الرضا إلى الرضا، وهكذا قال عز وجل: «رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ».

فقد ذكرنا بعض صفات الراضين من ظاهر ما أمكن أن يذكر مثله في كتاب، وما بقي من صفاتهم أكثر، وبالله التوفيق.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

باب الصدق في الشوق إلى الله عز وجل

رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه كان يقول في دعائه: «اللهم إني أسألك لذة العيش بعد الموت، والنظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك».

ورُوي عن أبي الدرداء رضي الله عنه، أنه كان يقول: أحِب الموت اشتياقًا إلى ربي.

ورُوي عن حذيفة رضي الله عنه، أنه قال عند الموت: حبيب جاء على فاقة، لا أفلح مَن ندم.

Telegram:@mbooks90

ورُوي عن شهر بن حوشب رضي الله عنه، أنه قال: أخذت معاذ رضي الله عنه قرحة في حلقه، فقال: اخنق خنقك، فوعزتِك إني أحبك.

وكان علي بن سهل المدائني رحمه الله يقوم إذا هدأت العيون، فينادي بصوت له محزون: يا مَن اشتغلتْ قلوب خلقه عنه بما يعقبهم عند لقائه ندمًا، ويا مَن سهتْ قلوب عباده عن الاشتياق إليه، إذ كانت أياديه إليهم قبل معرفتهم به. ثم يبكي حتى تبكي لبكائه جيرته.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثم ينادي: ليت شعري سيدي إلى متى تحبسني؟ ابعثني سيدي إلى حسن وعدك، وأنت العليم أنَّ الشوق قد برح بي وطال عليَّ الانتظار. ثم يخر مغشيًّا عليه، فلا يزال كذلك حتى يحرّك لصلاة الصبح.

وكان الحارث بن عمير رحمه الله يقول إذا أصبح: أصبحت ونفسي وقلبي مُصر على حبك سيدي، ومشتاق إلى لقائك، فعجِّل بذلك قبل أن يأتيني سواد الليل. فإذا أمسى قال مثل ذلك، فلم يزَل على مثل هذا الحال ستين سنة.

فالمشتاق إلى الله تعالى هو المتبرم بالدنيا والبقاء فيها، وهو محب للموت وانقضاء المدة والأجل.

ومن علامته: التوحش من الخلق، ولزوم العزلة والانفراد بالوحدة، ومن شأنه القلق والحنين والحزن والنحيب والكمد، والغصة المنكسرة في الصدر بشدة الشغف والكلف، والهذيان بذكر المحبوب، والارتياح إليه، والفكرة الصافية بهيجان الهمة، وجولان الروح في الغيوب، لطلب اللقاء، والبهت والدهش والحيرة عند توهم الظفر بالأمل من المأمول، ونسيان حظه من الدنيا والآخرة، إلا رؤية مَن هو إليه مشتاق. نعم، ثم يعارضه الآن الخوف الذي هو الخوف ألَّا يصل إلى محبوبه، ويخاف أن يقطع به دونه، ويُحال بينه وبينه ويحجب عنه، ثم يخاف أن تحدث حادثة، إذ كان في دار البلوى، قد طالت عليه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأيام والليالي، إلى أن يخرج من الدنيا سالمًا على الأمر الذي يُرضي مولاه.

فهذا بعض ما يمكن ذكره من صفات المشتاقين، وما بقي من نعتهم أكثر، وبالله التوفيق.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

باب الصدق في الأنس بالله تعالى وبذكره وقُربه

قال بعض الحكماء: الأنس بالله جل ثناؤه أرقُّ وأعذب من الشوق، لأن المشتاق كان بينه وبين الله تعالى مسافة خفيفة لِعلَّة شوقه، والمستأنس أقرب من الله عز وجل.

وهكذا رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم حين أتاه جَبريل عليه السلام في صورة رجل، فسأله عن الإسلام والإيمان، ثم سأله عن الإحسان، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، فقال له: صدقت. ورُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لابن عمر رضي الله عنه: «اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». وإنما دلَّه على قرب الله عز وجل، وقيامه عليه.

ومن قُرب الله تعالى تُستخرج حقائق الأمور في كل مقام. فمَن كان مقامه الخوف، أدركه من قُرب الله تعالى، حين علم أنه يراه، الحذرُ والفرَقُ والخشية. ومَن كان مقامه المحبة، أدركه من حقائق قُرب الله تعالى، حين علم أنه يراه، الفرحُ والسرورُ والنعيمُ والمسارعةُ في طلب رضاه والقربة، ليراه منافسًا راغبًا، يريد القربة إليه والمبالغة في محبته.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والصابر في وقت بلواه ومصيبته وما يتحمله لسيده مما يقربه من ثوابه، حين سمع الله عز وجل يقول: «إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ»، وقال تعالى: «وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا»، سهل عليه عند ذلك معالجة الصبر واحتمال مؤنته.

وكذلك أهل كل مقام عبدوا الله تعالى على القربة، وذلك حين أيقنوا، وهم الذين لا يكادون يَصِلون ولا يرجعون. وأما العامة من الناس، فإنهم عملوا على ما انتهى إليهم من الأمر والنهي، على رجاء ضعيف فخلطوا ولم يُحققوا.

فمن صدق الأنس ما يُروى عن عروة بن الزبير رحمة الله عليه، أنه خطب إلى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ابنته، وهو يطوف ببيت الله الحرام، فلم يُجِبه ابن عمر ولم يردَّ عليه جوابًا، ثم لقيه عبد الله بعد ذلك فقال له: إنك كلمتني في الطواف، ونحن نتخيل الله بين أعيننا!

فالمستأنس كأنه ينظر إلى ما اشتاق إليه المشتاق.

ويُروى عن عبد الواحد بن زيد البصري رحمه الله تعالى، أنه قال لأبي عاصم الشامي رضي الله عنه ورحمه: أمَا تشتاق إلى الله تعالى؟ قال: لا، إنما تشتاق إلى غائب، فإذا كان الغائب شاهدًا فإلى مَن تشتاق؟! فقال عبد الواحد: سقط الشوق.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ورُوي عن داود الطائي رحمه الله تعالى، وكان من أئمة المسلمين الذين أجمعوا على صدقه وعدالته، قال أيضًا: إنما تشتاق الغائب.

قال بعض العلماء رحمه الله: وإنما قالوا هذا من حقائق الوجود، لقرب الله عز وجل، كأنهم معه، إذ كان معهم شاهد لا يغيب، وذلك من الله تعالى تسكين وتطمين، ورحمة وراحة عجَّلها لهم في الدنيا، وإلا فما الذي وصل إليهم من الله عز وجل من قربه؟

فمن علامة المستأنس بالله تعالى وبقربه، أن يكون واجدًا لذِكر الله عز وجل في قلبه، واجدًا لقربه منه لا يفقده على كل حال، وفي كل وقت وكل موطن، ويكون الله عز وجل وقربه السابق إليه قبل الأشياء، وذلك إذا سكن قلبَه نورُ قرب الله تعالى منه، فبه ينظر إلى الأشياء، وبه يستدل على الأشياء.

وهكذا يُروى عن عامر بن عبد الله رضي الله عنه، أنه قال: ما نظرت إلى شيء قَطُّ إلا كان الله تعالى أقرب إليَّ منه.

ومن صفات المستأنس أن يكون مُتبرمًا بالأهلِ والخليقة كلهم، مستعذبًا للخلوة والوحدة، ويكون في البيت المظلم متبرمًا بالمصباح إذا رآه، بل يجيف بابه ويسبل ستره ويواحد قلبه، ويألف قرب مليكه، فيكون به أنيسًا، وبمناجاته متنعمًا، ويكون متفرغًا من طارق يطرقه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فينغص عليه خلوته. نعم، ثم تراه مستوحشًا من ضوء الشمس إذا دخل عليه في صلاته، ويتثاقل تلقاء الخلق ويملّهم، ويكون لقاؤهم ومجالستهم عليه غرامًا وخسارًا، فإذا جنّه الليل، ونامت العيون، وهدأت الحركات، وسكنت حواس الأشياء، خلا عند ذلك ببثّه، فهاج شجوه، وتصاعدت أنفاسه، وطال أنينه، وتنجّز الموعود من مأموله، وما قد غذاه من فوائده وألطافه، فظفر عند ذلك ببعض سؤله، وقضى بعض أوطاره.

وكذلك المستأنس، تذهب عنه الوحشة في المواطن التي يفزع فيها الناس، فيستوي عنده العمران والخراب والقفار، والجماعة والوحدة، وذلك الذي استولى عليه من قرب الله عز وجل وعذوبة ذكره، ويغلب ما سواه من العوارض الظاهرة والباطنة.

فهذا ظاهر الأنس الذي يمكن أن يذكره، وما بقي من مقامات الأنس أكثر وأعز من أن يكون في كتاب، إلا أن يجري منه شيء عند المذاكرة مع أهله، وبالله التوفيق.

* * *

واعلم أيها السائل عن الصدق وشرحه، أن الذي ذكرتُه لك إنما هو ظاهر الصدق والصبر والإخلاص الذي لا يسع الناس جهله، ولا ترك العملِ به، خاصة المريدين من الناس، الطالبين لسلوك سبيل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

النجاة.

ومن الناس مَن لا يكون له عند الله تعالى إلا هذا العلم الظاهر والعمل الظاهر، فيفعل في ذلك ويصدق فيه، فيؤديه ذلك إلى رحمة الله تعالى وثوابه، وله عند الله خير كثير.

ومن الناس مَن يصدق في هذه المقامات التي ذكرناها وأكثر، فيؤديه ذلك في عاجل الدنيا إلى المقام الرفيع والعلم بالله والمقام الشريف، فيصير إلى الروح والراحة والنعمة بمعرفة الله عز وجل، والظفر بقرب الله تعالى، والوصول إلى المنزلة الشريفة التي يدق وصفها وشرحها.

وقال بعض العلماء بالله تعالى: إن الله يكرم أولياءه بكرامة لا يطَّلع عليها العباد، لا في الدنيا ولا في الآخرة. ألم تسمع لقول الله عز وجل: « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ»؟ ويقال في الحديث: «فيُعطَون ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر».

وهكذا كل قوم على أقدارهم.

ومنهم مَن لا تنقضي كرامته من ثواب الله تعالى، ومن النعيم في الجنان.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومنهم مَن لا تنقضي كرامته من الله تعالى، والزيادة من برِّه والنظر إليه.

وقد صح الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن أدنى أهل الجنة منزلة مَن ينظر في مُلكه ألفَي عام يرى أقصاه كما يرى أدناه».

ومنهم مَن ينظر إلى وجه الله جل وعز كل يوم مرتين.

ومُحال أن يكون هؤلاء سواء، أو كان علمهم في الدنيا سواء. قال جل ذكره: «وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ»، فلم يقع التفضل على الخلق إلا بفضل علمهم بالله تعالى والمعرفة به، ثم على قدر هذا الأنس تفاوتوا في الدنيا والآخرة، وبالله التوفيق.

* * *

قلت: فهل يصير العبد إلى حال يفقد مطالبة الصدق من نفسه، ويسقط عنه مؤنة الأعمال، وأثقال الإخلاص، ومؤنة الصبر، ويكون عاملاً بالصدق، فأخذ مما ذكرت وأكثر بلا اشتغال ولا تعب؟

قال: نعم، ألم تسمع الحديث الذي يُروى: «إن الجنة حُفت بالمكاره وحُفت النار بالشهوات»؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويُروى في خبر آخر: «إن الحق ثقيل مريء، وإن الباطل خفيف وبيء».

والنفس مجبولة بحب هذه الدار والسكون إليها، وحب الدعة والراحة فيها.

أما الحق واتباعه والعمل به والصدق وأخلاقه، فذلك كله هو خلاف محبوب النفس.

فإذا عقل العبد عن الله تعالى، وفهم ما دعاه إليه من العزوف عن هذه الدار الفانية، والرغبة في الدار الباقية، حمل عند ذلك نفسه على احتمال المكاره: من ركوب طريق الصدق، وعزم على بذل المجهود، وصبر لله تعالى، وكابد نفسه، واستعان بالله تعالى، فنظر الله تعالى إليه راغبًا فيما لديه، حريصًا على أن يرضيه، وعاد عليه عند ذلك بلطفه وعونه، فسهّل عليه العسير مما استصعب من نفسه، وأبدله بالمرارة حلاوة، وبالثقل خفة، وبالخشونة لينًا ودعة، فسهل عليه قيام الليل، وصارت المناجاة لله تعالى، والخلوة بخدمته له نعيمًا بعد شدة المكابدة، وصار الصيام والظمأ في الهواجر خفيفًا عليه، حين ذاق عذوبة ما رجا من روح الله تعالى، وحُسن عاقبته.

وكذلك تبدلت وسهلت الأخلاق والأحوال عليه، حين قام له من كل مقام عاناه وكابده لله تعالى، التماس رضاه عوض مكانه من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخير، فتغيرت عند ذلك أخلاقه، وانتقل طبعه، وهدأت نفسه، وانتعش عقله، وسكنه نور الحق فألفه، ونفر عنه الهوى وطفئت ظلمته، فصار عند ذلك الصدق وأخلاقه طبعًا له لا يحسن غيره، ولا يألف إلا إياه، ولا يسكن إلى غيره، واكتنفته العصمة من ربه، فضعف عند ذلك كيد عدوه، وصار مغلوبًا حين ماتت دواعيه من الباطل، وكلَّ سلاحه بموت الهوى وانقياد النفس حين تخلَّقت بأخلاق المرحومين.

قال الله جل ذكره حين أخبر عن يوسف عليه السلام: «إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ».

فأنفُس الأنبياء والصديقين عليهم السلام مرحومة معصومة، وكذلك كل مؤمن على حسب قوة إيمانه، فسقطت عند ذلك عن العبد معاناة الصدق وثقل العمل به، فصار عاملًا بالصدق الذي ذكرناه وأكثر بأضعاف كثيرة بلا مؤنة، بل صار ذلك نعيمًا وغذاء، إن تركه توحَّش من تركه وتفزَّع من فقده، فصار الصدق وأخلاقه صفة له لا يحسن غيرها، حتى كأنه لم يزَل كذلك.

ومصداق ذلك في الكتاب والسنة موجود، قال الله تعالى: «وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ»، وقال عز وجل: «وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا»، وقال عز وجل: «وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ»، وقال عز من قائل: «وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟»، أي عن الدنيا. وإنما أردنا أن نثبت المجاهدة للنفوس وبذل الجهد في الصدق.

ثم إن المعونة من الله تأتي من بعد ذلك، والحجة في ذلك قائمة في السنن.

قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير سورة «طه»، قال: معنى «طه»: يا رجل (بلسان الحبشية)، «مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ» قال: لتعنَّى به. أفلا ترى أنه حين قام صلى الله عليه وسلم لله عز وجل شكرًا حتى تورمت قدماه شكرًا لله تعالى، أمره بالهدوء؟

وقد رُوي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتعبد في جبل حراء الشهر وأكثر.

وكذلك يُروى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يُحرس ويُحفظ من عدوه، حتى نزلت هذه الآية: «وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ»، فنحَّى الحرس تصديقًا لقول الله عز وجل حين ذكر له أنه يعصمه، فأيقن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وسكن صلى الله عليه وسلم.

وكذلك المؤمنون يأتيهم اليقين بعد الضعف، وكذلك النبي صلى الله عليه وسلم كان يخرج إلى الغار بالجبل الذي يُقال له «ثور»، ويختبئ هو وأبو بكر الصديق رضي الله عنه، ثم يخرجان إلى المدينة هاربين في السر. وهذا إنما كان وقت البلوى من الله تعالى له، إذ كان عليه السلام في مقام الصبر والمجاهدة، ثم من بعد ما صار إلى المدينة عليه السلام تغزوه قريش يوم وقعة «أُحد» فتَقتل أصحابه، وتكسِر رباعيته عليه السلام، ويدمى وجهه.

أفلا ترى أن الهوى والمحنة لازمة له وللمؤمنين، طالبة لهم؟ ثم إنه صلى الله عليه وسلم يخرج هو وأصحابه، فيهلُّ ويسوق الهَدْي يريد العمرة، فتمنعه قريش من دخول مكة، حتى اضطرب الناس، فأحل بالموضع الذي يُسمى «الحديبية»، ورجع ولم يدخل الحرم!

ثم انظر الآن حين انقضت مدة البلاء وجاء النصر، كيف دخل مكة صلى الله عليه وسلم فقَتل وأَمَّن مَن شاء، ثم بشر عندها بالمغفرة، فأنزل الله عز وجل: «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ»!

وهذا موسى صلى الله عليه وسلم ومنزلته عند الله، فانظر إلى عظيم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بلائه حين حملت به أمه، كيف ذُبحت النساء وقُتل الولدان في طلب موسى عليه السلام، فرجع بلاؤه على الخليقة. ثم أخبر الله عز وجل عنه فقال: «فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ»، وقال: «إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ»!

ثم انظر أيها المريد، الطالب للوصول إلى كرامة الله عز وجل بالتواني والتفريط، ألم يبلغك أن موسى عليه السلام لم يصِل إلى امرأته حتى رعى الغنم وخدم عشر سنين، ثم أرسله الله تعالى وكلَّمه وأظهر برهانه، فقال: «لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ»؟ فحين قال لهما «لَا تَخَافَآ»، هل خافا؟ ألم يجعل لهما آية في عصا، فظهرا على كيد السحرة، وهزما الجيوش، ثم أداله الله تعالى من أعدائه، وأغرقهم أجمعين؟

وهذا يوسف عليه السلام حين أخبر الله تعالى عنه أنه يُلقى في الجب، ثم يُباع بثمن بخس دراهم معدودة، وكانوا فيه من الزاهدين، ثم لم يفارقه البلاء، حتى فُتن بامرأة العزيز وسُجن السنين الكثيرة. ثم انظر كيف أداله الله تعالى على إخوته، ثم أخرجهم الله تعالى، فأظهر برهانه وجعله على خزائن الأرض!

وكذلك الأنبياء الذين ذكرهم الله عز وجل عليهم السلام. وفي هذا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بلاغ لمَن فهم عن الله عز وجل وعن العلماء الأدلَّاء على الطريق إلى الله عز وجل.

وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وما رُوي عنه أنه: «ما سلك طريقًا قَطُّ إلا سلك الشيطان طريقًا غيرها». وقال: «إن الشيطان ليفر من جبين عمر». وقد كان بالأمس من اللات والعزى في أمور تُرضي الشيطان! فانظر كيف أخلص لله تعالى وصدق إن كان منه العدو وباطله!

ورُوي عن ثابت البناني رحمة الله عليه، أنه قال: كابدتُ القرآن عشرين سنة، وتنعَّمت به عشرين سنة.

وقال بعض الحكماء: إن القوم لم يزالوا يمضون الصبر حتى صار عسلًا.

وقال بعض الحكماء: إن دون كل بر عقبة، فمَن تجشَّم ركوبها أفضت به إلى الراحة، ومَن هاله ركوب العقبة فلم يرقَها بقي مكانه.

قلت: فلا بد من هذه البلوى والاختبار؟

قال: لا بد منه، لكل عبد رفيع القدر عند الله عز وجل، من أهل المعرفة بالله عز وجل.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقد صح الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سُئل: مَن أشد الناس بلاء؟ قال: «الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى العبد على حسب دِينه، فإن كان في إيمانه قوة شُدِّد عليه البلاء، وإن كان في إيمانه ضعف خفِّف عليه البلاء».

فالأنبياء عليهم السلام بادأهم الحق عز وجل بكرامة الرسالة، وبشَّرهم بالنبوة، ثم حمل عليهم البلاء، فاحتملوا البلاء بقدر الكرامة التي أكرمهم بها، حتى راضهم بالبلاء وتفقَّهوا فيه، وبه صبروا لله عز وجل حتى نصروا.

والمؤمنون قامت لهم الرغبة في ثواب الله عز وجل الذي وعدهم، والرهبة من عقابه الذي به تواعدهم، فصبروا لله تعالى وأخلصوا وصدقوا، فشكر الله تعالى لهم ذلك، وأظهر برهانهم على الخليقة، فجعلهم علماء يُقتدى بهم، وأسكن اليقين قلوبهم.

ثم إن المؤمنين بعد ذلك على وجهين:

فمنهم مَن يبدأه الله تعالى بالنعمة والمنة والموهبة، فيهب له الإنابة، ويُحبب إليه البر، ويسهِّل عليه الطاعة، ويبدأه بالمِنَن الكثيرة. فإذا تمكَّن الروح في قلبه، واستعذب الأعمال الصالحة، حمل عليه بعد ذلك البلاء والاختبار والمصائب والضراء والعُسر والشدة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نعم، ثم تؤخذ منه الحلاوة التي كان يجدها، والنشاط في البِر، فتثقل عليه الطاعة بعد خفَّتها، ويجد المرارة بعد الحلاوة، والكسل بعد النشاط، والكدر بعد الصفاء، وذلك لعلَّة البلوى والاختبار، فتعتريه الفترة. فإن جاهد الآن وصبر واحتمل المكروه، صار إلى حد الراحة والبلوغ، وأضعف له البِر ظاهراً وباطناً.

وهكذا يُروى في الحديث: «إن لكل شرَّة فترة، فمَن كانت فترته إلى سُنة فقد نجا، ومَن كانت فترته إلى بدعة فقد هلك».

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: طوبى لمَن مات في النأنأة بدو الإسلام وشرَّته.

ويُروى في الحديث: «إن الله عز وجل يأمر جبريل عليه السلام فيقول: اقبض حلاوة الطاعة من قلب عبدي، فإن تأسَّف عليها فرُدها عليه وزِده، وإلا فدَعْه». ويُروى في حديث آخر: «إن الله عز وجل يقول: إن أدنى ما أصنع بالعالِم إذا ركن إلى الدنيا، أن أنزع حلاوة مُناجاته إياي من صدره، وأن أدعَه في الدنيا حيران». وفي خبر آخر: «إن العبد إذا ركن إلى الدنيا بعد العلم والمعرفة والعلم بالبصيرة، يقول الله عز وجل لجبريل عليه السلام: انزع حلاوة مناجاته إيَّاي من صدره، وأعطِه من الدنيا مقصماً يشتغل به عني».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وأما العبد الثاني: فإنه يبدأ بالصدق والأعمال الصالحة وأخلاق الصدق، ثم يعمل في ذلك ما شاء الله عز وجل، فتأتيه الكرامة بعد ذلك، فيعطيه الله تعالى ما لم يرجُه ويحتسبه. وهكذا عامة البدلاء، لا تأتيهم الآيات والكرامات إلا من بعد العمل وبذلِ الجهد وأكثر ما لم يحتسبوا ما أتاهم الله تعالى به، حين بدأهم الله عز وجل به.

ومنهم مَن اطلع على القوم وقيل له إنك منهم، فعمل بعد أن أُخبر بذلك.

ومنهم مَن يعرف نفسه ولا يعرف غيره.

ومنهم مَن يعرف الجميع بأسمائهم وقبائلهم.

فإن كنت، أيها السائل عن الصدق وشرح الطريق، قد عملت في الصدق ما ذكرتُه لك من العلم، وباشرتَ هذه المنازل، ونزلت هذه المراحل، وقطعت هذه الأسباب التي ذكرناها، فأفضيت منها إلى الراحة والسكون والطمأنينة، فأنت مُحاط بالعصمة، وماضٍ على سبيل الاستقامة والمحجَّة البيضاء التي توردك على الله عز وجل، فهنيئًا لك وبارك الله فيك، فأنت من أمرك على بصيرة.

وإن كنت قد باشرت الصدق، وعملت في كل مقام البِر بقدر طاقتك وما أذن الله تعالى لك، وعاينت الأمور، فعسى أن يكون الله

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قد رآك وقد أبليتَ فيما بينك وبينه، عذرًا لرغبتك في التقرب إليه، فصحّ إليه افتقارك حين علمت أنه لا بد لك منه، فألقيت كنفك بين يديه، فعسى أن يكون قد رآك في بعض الأوقات إليه قاصدًا راغبًا بنية صحيحة وعزم صادق، علم أنك لا تملّ ولا تبرح من التعرض له دون بلوغ مناك، فجاد لك ببرّه، وأعطاك بعض الأمل منه، بل جذب قلبك إليه جذبة فأسكنه اليقين، وأشرف به على الآخرة، فسهل عليك عند ذلك العسير، وألان لك من نفسك الصعب الذلول، ثم اختصر بك الطريق إليه، فقرّ قرارك وقامت حياتك وطاب عيشك.

فبذلك تعرف السيد الكريم الذي لا تنقصه المواهب، ولا ينفد نائله، لأنه البَر الرحيم الذي تسمّى الشكور. فيا عجبًا كل عجب، وعجب كل متعجّب، ولا عجب، إذ كان السيد الكريم يفعل ما يريد. ولكن موضع العجب يلزم العبيد من شكره لعبيده، الأمر الذي بدأهم به ودلّهم عليه، واستعملهم به وحفظ عليهم، ثم أحبهم عليه ونسبه إليهم فعلًا، ثم كتبه لهم في المقبول، ثم أثنى به عليهم بمَا وعدهم عليه الجزاء.

فهذا البر الآن من الكريم لا تقف عليه العباد، بل تُحَيّر فيه العقول.

هيهات أيها السائل المريد! استيقظ من طول هذه الرقدة، إنما هذه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أسماء علقها عليهم أنهم فاعلون، وأمور نسبها إليهم، وما أظنها إلا له، والتوفيق به والصنعة منه في صنعته التي تفرَّد بإنشائها وإبدائها لما شاء، وهو الفعَّال لما يريد، الذي يصيب برحمته مَن يشاء.

والعقلاء عن الله عز وجل من عباده يتلقَّون الأمور على هذا الوصف والشرح، ويرجعون في الأشياء إليه، ويرونها منه سبحانه، لأنه كان بدأها وعليه تمامها، فهو القائم بها وإليه مرجعها، و«لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ»، «أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ».

وأما الضعفاء من الخلق، فإنهم يرون لأنفسهم ها هنا فعلًا، هيهات إذا صدقوا وأخلصوا طلبوا الجزاء من الله عز وجل على ذلك، وذلك مبلغهم من العلم، ولهم عند الله تعالى خير كبير.

وأذكر لك مقامًا آخر، فاعرض نفسك وغيرك عليه ممن تراه من العبيد، يشير إلى المعرفة والعلم، والسكون إلى الله عز وجل. فإن كنت قد شربت بكأس المعرفة بالله تعالى، فأطلعك الله بصفاء اليقين على ما سبق لك عنده في القديم، حين أرادك قبل أن تريده، وكان لك عالِمًا قبل أن تعرفه، وذكرك قبل أن تذكره، وأحبَّك قبل أن تحبه، فهاج منك الآن الشكر له على أياديه، فألزمتَ قلبك المحبة على أياديه، فآثرته وارتاحت روحك إليه، فألِفتَ قُربه، فصرت الآن إليه تأوي، وفي قربه تسكن، فهو لا يغيب عنك ولا تفقده ذاهبًا وجائيًا، وقائمًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقاعدًا، ويقظان وراقدًا، وعلى كل حال.

أما سمعت ما يُذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم حين يقول: «تنام عيناي ولا ينام قلبي»؟

وكذلك المؤمنون على أقدارهم. فما أعظمَ شأنك أيها العبد، وأجلَّ خطبك، إذ كان السيد الكريم الكبير المتعالي الغني الحميد ذكرك ذكرًا بعد ذكر، فخصَّك، فأجزل لك العطية، إذ دلك على محبته فآثرته، فكان هو بُغيتك ومرادك ومنتهى رغبتك، وليس منك شيء تملكه للعباد، ولكنها موهبة، وهي أول أعلام الوصول إلى الراحة، أن يكون الله مراد العباد لا غيره.

ومن علامة ذلك: أن يكون هو الحافظ عليك ما استودع قلبك من ذكره ومودته، وأوجدك من قربه، وتعطَّف عليك ببره، فسامحك الآن، فسقطت عنك حركات الطلب للظفر أو التقرب، إلا حركة تهيج منك الآن شكرًا له على أياديه، وإيجابًا لحقه وألفة له على غيره، والتنعم بمناجاته ولذة خدمته، وما أراد فيك من تعبده بمشيئته، ليريك موضع قدرته، واختلاف أحكامه عليك، لتفقه عنه، وأنت في ذلك واجد لقربه، وغير مُتشاغل بحركاتك، ولا طالب منه عليها جزاء وثوابًا، كما أراد العبَّاد والزهاد، ولكن تعمل لله تعالى حبًّا وكرمًا، لأنه خلقك كرمًا، واستعملت بأخلاق الكرماء، وبالله التوفيق.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

* * *

وهذا الآن جواب لك آخر على مسألتك، حين قلت: هل يصير العبد إلى حال يفقد مطالبة الصدق من نفسه؟ وهي علامة الواصلين، فافهمها.

أما علمت أيها المريد أن الورع والزهد، والصبر والتوكل، والخوف والرجاء، والمراقبة والحياء، والمحبة والشوق والأنس، والصدق في المواطن والإخلاص فيها، وكل خُلق حسن جميل، إنما هي منازل نزلها العمال لله عز وجل، ثم ارتحلوا منها إلى غيرها، حتى وصلوا إلى المُنى من قرب سيدهم؟

فما أنت وذكر المنزل الذي نزلته حتى أوصلك إلى بغيتك، إن كنت واصلًا ظافرًا ببعض حظك من مطلوبك، فأنت كأنك مُشاهده.

فعليه الآن فازدَدْ إقبالًا، وإليه فأدِم النظر، وأصغ إليه بالآذان الواعية، فإنه أقرب إليك منك إلى نفسك، فما أنت الآن وذكر الصدق، وإنما هو منزل من منازل الطالبين.

وبعد، فإن كان قد فتح لك الباب الذي قد كان بينك وبينه مغلقًا، وكشف عن قلبك الستر الذي كان عليه مُرخى، فأوجدك قربه، ولاطفك ببعض التأنس، فعساك أن تكون قد صرت إلى بعض

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سؤلك، فقرَّ قرارك.

وإن كنت أنت وغيرك من الطالبين، إنما فقدت وجود مطالبة الصدق، وما أشبهه من الأمور من وجودك لقرب الله عز وجل والتشاغل به، فتلك بغية العارفين بالله عز وجل.

وكذلك فافهمها من نفسك ومن غيرك، ولا تخدعنَّ لنفسك من حظك من ربك.

واعلم أن الواصلين إلى الله عز وجل، وأهل القُرب منه، الذين قد ذاقوا طعم محبة الله تعالى بالحقيقة، وظفروا بحظهم من مليكهم، فمن صفاتهم: أن الورع والزهد والصبر والإخلاص والصدق والتوكل والثقة والمحبة والشوق والأنس والأخلاق الجميلة، وما لم يمكن أن يوصف من أخلاقهم، وما استوطنوه من البر والكرم، فذلك كله معهم، وساكن في طبعهم، ومخفيٌّ في سرائرهم، لا يحسنون غيره، لأنه غذاؤهم وعادتهم، لأنهم فرضوا ذلك على أنفسهم فرضًا، وعملوا فيه حتى ألفوه، فلم يكن عليهم بعد الوصول كلفة في إتيانه والعمل به إذا حل وقت كل حال، لأن ذلك غذاؤهم كما ليس لهم في أداء الفرائض ثقل ولا علاج. وذلك لما غلب على قلوبهم من الإيثار لله عز وجل والقرب منه، فهم عاملون به بلا مؤنة، بل بلا تشاغل بالأعمال الظاهرة، لأن الخدمة والأعمال الظاهرة إنما تقع على ظاهر

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجوارح.

فافهم هذا الموضوع والقلوب بعد ذلك ذاهلة، بل هي بالله مشغولة للذي استولى عليها من قرب الله عز وجل، والمحبة لله، والشوق إليه، والرهبة منه، والتعظيم له والإجلال.

فافهم أيها المريد ما ألقيتُ إليك وتدبَّرْه تجده بينًا معروفًا إن شاء الله تعالى.

فأحضِر الآن عقلك، واجمع همك، ولا تسمع العلم وأنت عازب الفهم عن الذي يلقى إليك، فلا عذر لك الآن بعد العلم والبيان، بل قد تأكدت عليك الحجة، فاعمل في التخلص إلى الله عز وجل لعلك أن تتخلص، فتقر عينك بمعرفته في هذه الدار عاجلًا قبل الآجل.

نعم، ثم يدوم حزنك، ويشتد كربك، وتزداد كل حال كنت تجدها أضعاف ما كنت تجدها قبل المعرفة والوصول.

ومصداق ذلك في كتاب الله عز وجل وسُنة نبيه صلى الله عليه وسلم، قال الله عز وجل: «إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا»، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية»، وقال صلى الله عليه وسلم: «لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وعلى حسب ذلك كان صلى الله عليه وسلم، وكذلك العارف بالله، القريب من الأشياء، الموفق في كل حال يحل فيها بما يكون فيها، بخلاف غيره من الناس.

ثم على هذا القياس، وفي هذا بلاغ لمَن فهم وتدبر، وبالله التوفيق.

* * *

قلت: متى يألف العبد أحكام مولاه، ويسكن في تدبيره واختياره؟

قال: الناس في هذا على مقامَيْن، فافهم.

فمَن كان منهم إنما يألف أحكام مولاه ليقوم بأمره الذي يوصله إلى ثوابه، فذلك حسن وفيه خير كبير، إلا إن صاحبه يقوم ويقع، ويصبر مرة ويجزع أخرى، ويرضى ويسخط، ويعبر ويراجع الأمر، فذلك يؤديه إلى ثواب الله ورحمته، إلا إنه معنى في شدة ومكابدة.

وإنما يألف العبد أحكام مولاه، ويستعذب بلواه، ويسكن في حُسن تدبيره واختياره بالكلية بلا تلكؤ من نفسه، إذا كان العبد آلفًا لمولاه ولذِكْره، وهو له محب وادٍّ، وبه راضٍ وعنه راضٍ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فهل يكون، أيها السائل، على المحب مؤنة فيما حكم عليه محبوبه؟ كيف؟ وإنما يتلقى ذلك بالسرور والنعيم! هكذا قال في الخبر: «حتى يعد البلاء نعمة، والرخاء مصيبة»، وقال في خبر آخر: «غنيمة الصديقين ما زُوي عنهم من الدنيا». ورُوي عن الله عز وجل في بعض ما أنزل من كتبه أنه قال: «معشر المتوجهين إليَّ بحبي، ما يضركم ما نابكم من الدنيا إذا كنت لكم حصناً؟ وما يضركم مَن عاداكم إذا كنت لكم سلماً؟».

فمَن كان مع الله عز وجل بهذه الأحوال في المواطن، كيف يكون إلا على نحو ما ذكرناه؟

ولقد قال بعض العلماء بالله تعالى، وأهل القُرب منه: إن القوم الذي ذكرنا بعض أحوالهم لا يرضون من أنفسهم أن تكون تقاوم الأمور عند حلوها، والأحداث عند نوازلها، حتى تتمكن من قلوبهم، فيحتاجوا أن يصبروا عليها أو يرضوا بها. بل الصبر والرضا لهم تابع مُضاف، لأنهم طالبوا من أنفسهم صحة الشغل بالله تعالى والانفراد به، فلم يرضوا عند ذلك أن تكون الأمور النازلة بهم تقاوم ذكر الله تعالى حتى تساويه، «وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ».

Telegram:@mbooks90

وبعد، فإنهم عبيد محكوم عليهم، وإن أقل القليل في الأوقات ليملكهم، حتى يقروا لله تعالى بالضعف، ويسألوه العون، فلا تعجب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إن بدا لك من أحد منهم شيءٍ من ذلك. فهذا النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «إني بشر، اللهم مَن دعوت عليه فاجعل دعائي عليه رحمة». وسمعت بعض العلماء بالله عز وجل يقول: إن من شدة اتصال العبد بمولاه، ووَجْده به، ونزوله في قربه، لا يجد طعم اختلاف الأحكام، بل يكون معه النظر الخفي إليها، حتى كأنها على غيره أو بغيره نازلة.

فهذا غاية من التلقِّي للأحكام، فافهم هذا الموضوع وتِدبره، فإنه يؤديك إلى علم السكون إلى الله عز وجل إن شاء الله. وإنما يكون السكون إلى الله تعالى والطمأنينة على قدر القرب من القلب. ومن شرح السكون إلى الله تعالى، فقد حس الأشياء من القلب، وسكون دواعي الهم، وهدوء الضمير مع الله وإلى الله تعالى.

فعند ذلك تكون الأمور من الدنيا والآخرة، وأعمال البر والطاعة، طالبة للعبد ولاحقة به، وإليه محتاجة، وإليه واصلة، بل إليه موصولة، لأنه عزف عنها واستغنى بمالكها، فوصلت إليه، قال الله عز وجل: « أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ».

وبلغنا أن الله عز وجل أوحى إلى عيسى عليه السلام: «أنزِلني منك كهمِك، واجعلني ذخرًا لك في معادك».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ورُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم من غير طريق أنه قال: «مَن جعل الهم همًّا واحدًا كفاه الله سائر همومه».

ورُوي عن الفضيل بن عياض رحمه الله، أنه قال: ما عجبت من عبادة ملَك مُقرَّب ولا نبي مُرسل، إذ كان الله عز وجل قوَّاهم على ذلك.

وهكذا مَن ذكرناه من القوم وصفاتهم، فمَن نظر إلى عبيدِ الله تعالى بنفسه وقياسه، وبأنفسهم وما يشبههم، فهُم عنده في موضع النقص أبدًا. فإذا نظر إليهم بالله عز وجل، وبقوته وتدبيره، فممَّ يعجب؟

وبالله التوفيق.

مسألة تدل على ما ذكرنا:

قلت: فما تقول في عبد كان لا يتكلم ولا يتحرك ولا يعمل عملًا إلا طُولب عليه في ذلك، ووجد النقصان، ولحقته الفترة والقسوة في أوقات نيله وأكله وشربه، وكذلك في جميع أحواله، ثم صار إلى حال يتكلم ويتحرك في الأمور، ويقبض ويبسط، ويأكل ويشرب، ولا يستوحش، ولا يجد مطالبة، ولا يرى نقصًا كما كان يراه قبل؟

فقال: هذه مسألة حسنة فافهمها، فما أحوج المريدين العمال إليها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اعلم أن المريد الطالب للصدق، فهو عامل في جميع أموره بالمراقبة لله عز وجل بالقيام على قلبه وهمّه وجوارحه بالمحاسبة. فهو جامع لهمه، حذِرًا من أن يُدخل في همِّه ما لا يعنيه، حذِرًا من الغفلة. فالحركات في ظاهر جوارحه بجوارحه تنقصه، والهمم الداخلة عليه في قلبه تكدِّر همه، فهو عند ذلك يتفرغ من الحركات التي ذكرت، وإن كانت في حق وبحق، وذلك لما غلب على قلبه من محبته أن يكون ذكره دائمًا وهمه واحدًا.

فإذا دام على ذلك تفطَّن قلبه، وصفتْ فكرته، وسكن النور قلبه، وقرب من الله تعالى، فغلب على قلبه وهمّه. فعند ذلك يتكلم والقلب يغلي بالذِّكر لله عز وجل، وقد كمنت في سويداء قلبه محبة الله تعالى، فهي لازمة للضمير لا تفارقه. فمن شأنه في سرائره أن يكون ناعمًا بالمخاطبة لله الخفية، والمطالعة الشجية، والمحادثة الشهية. وهكذا يكون في أكله وشربه ونومه وكل حركاته، لأن قرب الله تعالى إذا تمكَّن في قلب العبد غلب على ما سواه من باطنٍ عوارض الهمم، وظاهر حركات الجوارح، فعندها يكون العبد ذاهبًا وجائيًا، وآخذًا ومعطيًا، والغالب عليه همّ ما قد ملك ضميره من محبة الله عز وجل وقربه.

ألم ترَ نفسك أيها المريد كيف تملَّك قلبك أحيانًا همٌّ من أمر الدنيا، فيسلبك عن كل شيء، حتى يكدر عليك العيش، فتكون ساهيًا إلا

Telegram @mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عن ذلك حتى تفقد النوم؟ فأمر الله عز وجل أحرى عند العقلاء وأولى.

فعندما ذكرنا صحبت العبد من الله عز وجل العصمة، فكان محفوظًا من النقصان.

* * *

فافهم أيها السائل ما يُلقى إليك وتدبره، ينفعك إن شاء الله تعالى.

وبعد، فاعرض ما ذكرتُ لك على ما سألتَ عنه، فإن أجزأكَ، وكان ما فقدت وما وجدت من جنس ما ذكرت، فاشكر الله تعالى يزِدك. ولا يخفى على العلماء ما يحدث عندك، فليس بين المريد وبين معلِّمه رئاء إن شاء الله تعالى، وإني بمؤدب بصير جهبذ في زماننا هذا، وبالله التوفيق.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المكتبة الصوفية الصغيرة

١. آداب النفوس ـ الحارث بن أسد المحاسبي.

٢. التنوير في إسقاط التدبير ـ ابن عطاء الله السكندري.

٣. الحكم العطائية ـ ابن عطاء الله السكندري.

٤. رسالة الذي لا يعوَّل عليه ـ محيي الدين ابن عربي.

٥. منازل السائرين إلى الحق عز شأنه ـ عبد الله بن محمد الأنصاري الهروي.

٦. قلبي يحدثني بأنك متلفي: مختارات من أجمل قصائد الصوفية ـ إعداد: أسامة الصاوي.

٧. كتاب الصدق ـ أبو سعيد الخرَّاز.

٨. في العشق الإلهي - جلال الدين الرومي، ترجمة: خالد فاروق.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تم التحميل بواسطة:
Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner